1 – أوضاع إسبانيا الداخلية، علاقاتها الخارجية و طموحاتها الاستعمارية

أ – قيام دولة إسبانيا الموحدة

كانت الخريطة السياسية لشبه الجزيرة الأيبيرية[1]، خلال القرن 9 هـ/15م الميلادي تتكون من عدة كيانات سياسية، تمثلت في مملكة قشتالة (Castile)، و مملكة الأراغون (Aragon)، مملكة النفار(Nivar)، و مملكة البرتغال (Portugal) و مملكة غرناطة (Granada) في الجنوب، و كانت هناك صراعات و مناوشات بين هذه المماليك قصد التوسع و الهيمنة خارج حدودها[2] .

و في الوقت الذي بدأت فيه البرتغال نشاطها الاستعماري في القرن 10 هـ/ 16 م كانت إسبانيا تتكون من مملكتي قشتالة و اراغون، و كانت قشتالة بحكم موقعها الجغرافي تتجه نحو المحيط الأطلسي، و تهتم بحكم دورها في الصراع مع المسلمين بما يجري في المغرب الاسلامي، أما مملكة أراغون فقد كانت بحكم امتلاكها جزر البليار[3]، و صقلية و سردينيا تتجه نحو البحر المتوسط، لذلك كانت سياستها تهدف لتأمين طريق بحري آمن بين اشبيلية و صقلية الغنية، و كان لا بد لها من أجل تحقيق ذلك من إيجاد نقاط ارتكاز على سواحل المغرب، و بذلك فقد كانت مصالح المملكتين مختلفة، لكن جمعهما عداؤهما

---

1) سُمِّيت بشبه جزيرة ايبيريا (Iberian Peninsula) نسبة إلى جدهم الإبر مجهول الأصل و سُمِّيت بالأندلس عندما كانت حاضرة المسلمين خلال ثمانية قرون، ثم عرفت بعد ذلك بإسبانيا. **للمزيد أنظر:** محمد بن يوسف الزياني، **دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تح: الشيخ المهدي البوعبدلي، الجزائر، د. ت، ص ص 137 – 138.

2) عبد القادر الميلق، **تأثير ثورات الموريسكيين الأندلسيين على العلاقات الجزائرية الأسبانية 1492 – 1609م**، مذكرة ماجستير، إشراف: صالح بوسليم، جامعة غرداية، الجزائر 2012 – 2013، ص 16.

3) **جزر البليار:** اسم لجملة جزر في غرب البحر الأبيض المتوسط، تابعة لإسبانيا، و تسمى عند العرب ميورقة و منورقة نقلا عن اسمي أكبرهما عند الافرنج و هما (Minorque , Majorque). **أنظر:** أحمد زكي بك، **قاموس الجغرافية القديمة**، ط1، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، 1899 ص 31.

للإسلام و المسلمين على السواء [1]. و كانت العوامل و الظروف تتجه نحو وحدتهما لمواجهة الوجود الاسلامي في المنطقة، و بذلك يمكن القول أنه لم يكن لإسبانيا شعور قومي، ولكنها كانت منتشية بشعور الكنيسة الكاثوليكية و العداء للإسلام [2].

و قد بدأ ظهور إسبانيا كدولة مع تولي ملك قشتالة "جون الثاني" (john II) الحكم عام 1419م و الذي تميّز حكمه بالضعف و عدم قدرته على مواجهة الاضطرابات، أما في أراغون فقد تولى "ألفونس الخامس" (Alphonse V) الحكم خلفا لأبيه عام 1416م[3].

في تلك الآونة كان حكم المسلمين في الأندلس ينهار أمام سياسة الاقتطاع، و إشتداد الصراع بين أمراء بني نصر (بني الأحمر)، هذا الصراع الذي ظهر جليًّا مع النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، و يبدأ بوصول "أبي الحسن علي بن سعد بن اسماعيل" و المعروف باسم "مولاي الحسن" سنة 1464م إلى سُدّة الحكم، حيث كان له دور كبير في تأجيج الصراع داخل البيت الناصري لاستهتاره، و رُكونِه إلى الملذّات و رفضه الجهاد في وقت تكالب فيه النّصارى على غرناطة [4].

و الحديث عن أبي الحسن لا يمكن دون الحديث عن دور المرأة الأجنبية في سقوط الدول، فمولاي الحسن تزوّج و هو في سن متقدمة من فتاة إسبانية نصرانية أسلمت ظاهرا و سُمِّيت "ثريا" [5]، و أنجب منها ولدين هما سعد و نصر [6]، و كان للسلطان قبلها

---

1) نبيل عبد الحي رضوان، **جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس و استرداده في مطلع العصر الحديث** رسالة دكتوراة، إشراف: محمد عبد اللطيف البحراوي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية 1987، ص 29.

2) عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، **التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى**، دار الفكر العربي للطبع والنشر، القاهرة، 1999، ص 40.

3) Catherine, Gaignard, **Maures et Chrétiens à grenade 1492 – 1570**, Edition le Temps, Lesbone, 1989, pp 14 – 16.

4) جمال يحياوي، **سقوط غرناطة و مأساة الأندلسيين (1492 – 1610)**، دار هومة، الجزائر 2004، ص 31.

5- كانت جارية عند السلطان، و اسمها الأصلي ايزابيلا دي صولي. **أنظر:** يحياوي، المرجع السابق ص 32.

6) محمود مكي، **تاريخ الأندلس السياسي الثقافي و الاجتماعي**، بيروت ، 1998، ص 134.

ولدان (محمد و يوسف) من ابنة عمه "السيدة عائشة الحرة"، و بفعله هذا فتح الباب على مصراعيه لصراع السيدات، لأن كل واحدة تريد أن تظفر بالسلطة لولدها[1].

استطاعت ثريا الاسبانية أن تسيطر على السلطان و أصبحت سيدة القصر الأولى و تمكّنت من السيدة عائشة بإقناع الزوج بسجنها رفقة ولديها محمد (أبي عبدالله الصغير) و يوسف (أبي الحجاج يوسف) بسجن قمارش (Gummareche)، لكن السيدة عائشة لم تستسلم و تمكّنت من الفرار من السجن و الاستقرار بوادي "آش" (Ache) ضواحي غرناطة، أين بايع الكثير ابنها محمد (أبي عبدالله الصغير)، و هكذا انقسم العرش بينه و بين أبيه أبي الحسن[2].

سعى أمير غرناطة[3] الجديد، محمد "أبي عبدالله الصغير" لمصالحة ملك قشتالة للحصول على تأييده في صراعه ضد عمه "محمد أبي عبد الله الزغل"[4]، الذي استلم العرش بعد تنازل أخيه ابي الحسن[5].

و بفضل هذه المساعدة أصبح "محمد الصغير" أميرا على غرناطة، و تحوّل إلى تابع للملك جون الثاني الذي بدأ يضع سياسة توسعية تقوم على الحجج القائلة بأن العمليات

---

1) يحياوي، مرجع سابق، ص 31.

2) نفسه، ص 32.

3) **غرناطة :** مملكة إسلامية قامت في جنوبي إسبانيا، تقع في ساحل إسبانيا الجنوبي ومساحتها حوالي 31,100كم². صارت مملكة مستقلة عام336 هـ/ 1238م. واستمرت مركزا للعلوم والحضارة التي ابتكرها المسلمون في إسبانيا. و كان سقوطها نتيجة للخلافات والحروب التي نشأت بين حكام المسلمين أنفسهم. استولت جيوش فرديناند وإيزابيلا على مملكة غرناطة عام 897هـ/1492م. **أنظر: الموسوعة العربية الشاملة**، نسخة الكترونية، 2004.

4) **أبو عبدالله محمد بن سعد الزغل (ت 899هـ):** عم سلطان غرناطة، هاجر إلى وهران بعد سقوط غرناطة ثم استقر في تلمسان و دفن بها، و بها نسله إلى الآن يعرفون ببني سلطان الاندلس و قد عُثِر على شاهد قبره بتلمسان كُتِبَ عليه: قبر سلطان قد مات في حال انجلائه، بتلمسان غريبا مهملا بين نسائه، بعد أن جاهد في الله جهد اعتنائه، حكم الدهر عليه قهرا حكم قضائه، و أتاه الله صبرا عند انزال بلائه، فسقى الله قبره دائما غيث سمائه. **أنظر:** أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تح و تق: المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر، 1973، ص13.

5) يحياوي، المرجع السابق، ص 33.

العسكرية يجب أن تتجه لاحتلال نقاط ارتكاز على ساحل افريقيا قصد القيام بعمليات مراقبة دائمة و سريعة لحماية الملاحة البحرية، إلا أنه سرعان ما جمدت المشاريع الاستعمارية عام 1466م نتيجة اندلاع الثورات في قشتالة، و أعلن قادة التمرد "ألفونس" شقيق الملك "أنريك" ملكا عليهم، كان هذا التمرد نتيجة لرغبة الملك أنريك في توريث العرش لابنته "جوانا" و التي كانت ستتزوج بملك البرتغال مما يعني ذهاب عرش قشتالة إلى أسرة غير قشتالية، و كان متزعم هذه الثورات الكاردينال خيمينيس [1].

و حاول المتمردون جر "إيزابيلا" شقيقته للثورة، غير أنها رفضت التمرد على الملك و أمام فشل محاولات القضاء على التمرد رضخ "أنريك" لشروط المتمردين بالاعتراف في سبتمبر 1468م بإيزابيلا وريثة شرعية له بدلا من ابنته، و كان لإيزابيلا [2] وريثة عرش قشتالة، اختيار إما الزواج بالبيت الأراغوني أو من البيت البرتغالي [3]، لكنها اختارت في النهاية الزواج من "فرديناند" [4] ابن الملك "جون الثاني" ملك أراغون و ذلك سنة 1469م، و هو الزواج السياسي الأكثر تأثيرا في العلاقات الأوربية الأوربية و كذلك العلاقات الإسلامية المسيحية، إذ سيحقق لإسبانيا الكثير من المكاسب [5].

لكن استمرار المشاكل السياسية داخل الأسرة الملكية أعاد من جديد التمرد في قشتالة، و تزامن ذلك مع وفاة الملك "أنريك" عام 1474م، فانتقل الحكم إلى "ايزابيلا" و بوفاة الملك جون الثاني ملك " نفار" و "أراغون" انتقل الملك إلى ابنه فرديناند سنة 1479 م، فاتّحدت إسبانيا و أصبحت تحتل رقعة سياسية كبيرة خاصة بعد سياسة التوسع

---

1) Gaignard, Op.cit, pp 14 – 16.

2) **الملكة ايزابيلا الكاثوليكية (1451 – 1504 م):** ملكة قشتالة (1474 – 1504 م)، ورثت العرش بعد وفاة أخيها هنري الرابع، حصلت مع زوجها على لقب ملوك الكاثوليك من البابا اسكندر السادس بعد سقوط غرناطة 1492م. أنظر: Encyclopédie, Noms propres de la langue Française, Hachette, Paris ,1991, p 677.

3 - Fernand Braudel **, la méditerranée et le monde méditerranéen a l'époque de Philippe II** , 5eme Edition , Armand Colin , Paris , 1982 , T2 , p19.

4) **فرديناند الثاني الكاثوليكي: (1452 – 1516 م):** ابن فرديناند الأول، أصبح ملك آراغون سنة 1452م، و ملك آراغون و صقلية (1479 – 1516 م)، ثم نابولي (1504 – 1516 م)، تميّز حكمة بالقسوة و الشدة، و في عهده أسست محاكم التفتيش 1480م، لمطاردة المسلمين و اليهود و تنصيرهم. **أنظر:** Encyclopédie,Op.cit, p499

5- Gaignard, Op.cit, p16.

من خلال طرد المسلمين و غزو بلاد المغرب و الكشوفات الجغرافية في العالم الجديد و قد اتخذت الوحدة السياسية هاته، صبغة دينية كاثوليكية قوامها تعاقد الكنيسة مع الملك خاصة في عهد الملوك الكاثوليك [1].

فقد حمل فرديناند و إيزابيلا على عاتقهم محاربة العرب والمسلمين، وإتمام اخضاع شبه جزيرة إيبيريا [2]، فسقطت غرناطة عام 1492م، و التي كانت تمثّل آخر معقل للمسلمين بالأندلس، وبدأت إسبانيا تظهر كقوة في البحر المتوسط، و اتّجهت إلى مزيد من الكشوفات الجغرافية، فاكتشف كريستوف كولومبس [3] العالم الجديد، وبفعل قربها من دول شمال إفريقيا التي كانت تعاني الضعف والتناحر على السلطة، سعت (إسبانيا) جاهدة إلى مد أطرافها إلى ما وراء البحار، وملاحقة المسلمين الذين فرُّوا من محاكم التفتيش التي أقامتها الملكة إيزابيلا بتهمة الإلحاد [4].

ب – الامبراطورية الاسبانية، طموحاتها الإستعمارية و علاقاتها الخارجية

منذ أن ظهرت إسبانيا كدولة موحدة وجّهت أنظارها مع نهاية القرن 9هـ/15م نحو اكتشاف طرق بحرية جديدة تصلها بدول الشرق مباشرة و ذلك للإستيلاء على تجارة الشرق، كمحاولة للتخلص من الرسوم الجمركية الفادحة التي كانت تفرضها السلطات

---

1) محمد خير فارس، **تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي** مكتبة الشروق، بيروت، 1969، ص 14.

2) عبد الحميد البطريق، عبد العزيز سليمان نوار، **التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا**، دار النهضة، لبنان، 1929، ص 31.

3) **كولومبس كريستوفر (1451 – 1506):** مكتشف أمريكا، ولد في جنوة بإيطاليا، و انتقل إلى لشبونة حيث تزوج من ابنة ملاح برتغالي. أخفق كولمبس في الحصول على موافقة ملك البرتغال جون الثاني و مساعدته للإبحار إلى الهند عن طريق الملاحة في المحيط الأطلنطي غربا، فتوجّه لإسبانيا و قضى فيها ثمان سنوات، و طلب من البلاط الاسباني تقديم العون، و عندما أُجيب طلبه رحل من ثغر بالوس بإسبانيا على متن ثلاث سفن، و بعد عودته استقبل في إسبانيا استقبالا حماسيا بعد وصوله (اكتشافه) إلى عدة مناطق من أمريكا كفنزويلا و هندوراس و جامايكا. **أنظر:** علي مولا **الموسوعة العربية الميسرة**، مج5، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2010، ص 2787.

4) الشافعي درويش، **علاقات الإيالات العثمانية في غرب المتوسط مع إسبانيا خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي**، مذكرة ماجستير، إشراف: عمار بن خروف، جامعة غرداية الجزائر، 2010– 2011، ص 20.

الحاكمة في مصر و الشام على السلع الشرقية عند مرورها في أراضي هذين القطرين بالإضافة إلى الرغبة في ضرب الإحتكار الذي كان يمارسه تجار جمهورية البندقية [1].

و هذا بعد أن كان للبرتغال السبق في هذا المجال عن طريق كثير من البحارة العسكريين على غرار "بارثلوميو دياز" و "فاسكو دي غاما" الذي اكتشف طريق الهند [2].

و قد توجّه الاسبان نحو الغرب باتجاه المحيط الأطلسي، و اكتشفوا العالم الجديد سنة 1492م [3]. و تمكّن ماجلان [4] من الالتفاف حول العالم، في عهد "شارل الخامس" و قد انتشى الامبراطور بهذا العمل، و إعتبره نصرا إلهيا اختص به آل الهابسبورغ و بأن العناية الإلهية أرادت له حكم العالم[5].

و استطاع الاسبان الاستيلاء على الكثير من الأراضي في القارة الجديدة في كل من المكسيك، و كوبا و بنما و البيرو، كما استطاعوا الحصول على كميات وافرة من الذهب و الفضة و الأحجار الكريمة، ثم انتقلوا إلى ممارسة الزراعة مستغلين السكان الأصليين و الزنوج الذين جلبوهم من افريقيا [6].

1- **البندقية (فينيسيا):** مدينة تقع شمال شرق إيطاليا، على جزر متعددة بالطرف الشمالي للبحر الأدرياتي، سيطرت على تجارة البحر المتوسط خلال القرن14 م و نازعتها جنوة، و فقدت سيطرتها بعد سقوط قبرص سنة 1571م. **أنظر: الموسوعة العربية الميسّرة**، مج5، مرجع سابق ص ص 1515- 1516.

2) أشرف صالح محمد سيد، **أصول التاريخ الأوربي الحديث**، دار ناشري للنشر الالكتروني، الكويت 2009، ص 64.

3) البطريق، مرجع سابق، ص 59.

4) **ماجلان فرديناند (1480 – 1521)** : ملاّح برتغالي خدم في الهند البرتغالية (1505- 1512م) تحت رياسة دي ألميدا، ثم في المغرب الأقصى (1513 – 1514م)، و أدّت تصرفاته المالية إلى فقدان عطف الملك البرتغالي عمانويل الأول، و رفضه لمحاولته الوصول إلى جزر البهار، فعرض الفكرة على الاسبان، الذين أقرُّوه و أمدُّوه بالمعونة سنة 1519م، حيث عبر المحيط الأطلنطي إلى جزر الفلبين و فيها قتل سنة 1521م، و قد برهنت رحلته على كروية الأرض. **أنظر: الموسوعة العربية الميسرة**، مج6، مرجع سابق، ص 2954.

5) البطريق، المرجع السابق، ص 59.

6) محمد سيد، مرجع سابق، ص 79.

ب – 1) العلاقة مع اوربا :

اهتم الملك الاسباني "فرديناند" كثيرا بايطاليا رغبة في التوسع و باعتبار أن له حقوق وراثة في نابولي، فدخل في صراع مع فرنسا و ملكها "شارل الثامن" الذي كان يعتبر هو الآخر أن له حقوق وراثية فيها، فاندلعت بذلك الحرب بينهما [1]، و هي التي عرفت بالحروب الايطالية [2].

و عند وفاة ملك إسبانيا فرديناند ورث العرش حفيده شارل سنة 1516م، تحت اسم شارل الأول، و في سنة 1519م، و بوفاة جده الامبراطور "ماكسيميليان"(1493–1519م) تُوّج امبراطورا على الامبراطورية الرومانية المقدسة، وأصبح يلقب بشارل الخـــامس [3] و ورث أيضا حكم الأراضي المنخفضة و نابولي و ميلانو و صقلية [4].

---

1) نوّار، مرجع سابق، ص 86.

2) **الحروب الإيطالية (Les guerre D`Italie):** هي حروب متقطعة نشبت بين فرنسا و إسبانيا على أراضي إيطاليا و دامت حوالي 65 سنة، و كان سببها الرئيسي أطماعهما في إيطاليا، و قد مرت هذه الحروب بدورين، الدور الأول في الفترة ما بين (1494 – 1515 م)، و الدور الثاني ما بين (1515 – 1559 م) و انتهى بعقد معاهدة كاتو كمبرسيس (Cateau-Cambresis) و التي بموجبها احتفظت إسبانيا بسيطرتها على كل من نابولي و ميلانو الإيطاليتين، و تعتبر هذه المعاهدة أيضا بداية عهد جديد في العلاقات الأوربية، و قد وطد دعائم هذا الصلح عقد قران فيليب الثاني بالأميرة إليزابيث ابنة هنري الثاني ملك فرنسا. **أنظر:** شوقي عطا الله الجمل و عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، ط 2، دار الزهراء للنشـــر والتوزيع، السعودية، 2008 ص 55. **أنظر أيضا: الموسوعة العربية الميسرة**، مج1، مرجع سابق، ص 259.

3) **شارل الخامس Charles V** (1500 – 1558): ملك إسبانيا (1516 – 1556)، تقلّد بعدها رأس الامبرطورية الرومانية المقدسة (1519 – 1556). عُرِف بتعصبه الديني، و في عهده اتسعت رقعة الامبراطورية الاسبانية في أوربا. في أواخر حياته تنازل عن العرش لابنه فيليب الثاني و عرش ألمانيا لأخيه فرديناند، و اعتزل في دير يوست سنة 1555 إلى أن توفي في 21 سبتمبر 1558م. **أنظر:** منير البعلبكي، **معجم أعلام المورد**، دار العلم للملايين، بيروت، 1992، ص 255.

4) صالح حيمر، **التحالف الأوربي ضد الجزائر عام 1541 و تأثيراته الإقليمية و الدولية**، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، إشراف: علي آجقو، الجزائر، 2006 – 2007، ص 63.

يعد عصر شارل الخامس العهد الذهبي لإسبانيا، حيث بلغت في عهده أوجّ قوتها و كان عهدا حافلا بالحروب في أوربا، فقد استمرت الحروب الايطالية في عهده، و أيضا الحروب مع الدولة العثمانية التي كانت قواتها تجتاح المجر [1].

و تميّزت فترة حكمه بظهور حركة الإصلاح الديني التي قادها مارتن لوثر[2]، و قد حاول الامبراطور بحث المسألة الدينية من خلال عقده عدة مجالس لحل المسألة سلميا لكن دون جدوى، إلى غاية سنة 1545م، حين قرّر استخدام القوة ضد هذه الحركة [3].

ب – 2) العلاقة مع الدولة العثمانية :

كان العالم خلال القرنين 15م و16م خاضعا لنفوذ امبراطوريتين، الخلافة العثمانية [4] في الشرق و إسبانيا المسيحية في الغرب، فإسبانيا و بعد سقوط غرناطة عام 1492م أخذت في مطاردة المسلمين الموريسكيين [5] رغبة بالانتقام، و سلّطت عليهم شَتَّى أنواع

---

1) البطريق، مرجع سابق، ص ص 81 – 82.

2) **مارتن لوثر Martin Luther (1483 – 1546 م):** ولد في مقاطعة سكسونيا بألمانيا من ابوين يعيشان على فلاحة الأرض، عني والده بتعليمه فدرس القانون، ثم انخرط في سلك الرهبنة سنة 1505م و رُسِّم كاهنا سنة 1507. و قد تزعم حركة الإصلاح الديني في المانيا لتنتشر في كامل أوربا تقريبا. **أنظر:** البطريق، المرجع السابق، ص ص 94 – 97. **أنظر أيضا: الموسوعة العربية الميسرة** مج1، مرجع سابق، ص 318.

3) البطريق، المرجع السابق ، ص 87 و ما بعدها.

4) **الامبراطورية العثمانية:** أعظم الدول الاسلامية إتساعا، تكونت بين القرنين (14 – 16م) بالشرق الأدنى على يد الأتراك العثمانيين بعد تفكك أمبراطورية السلاجقة، و اتسعت رقعة البلاد تحت حكم عدد من السلاطين ذوي الكفاية كان أولهم عثمان الأول ثم مراد الأول و بايزيد الأول على حساب الإمبراطورية البيزنطية و مملكتي بلغاريا و صربيا. بلغت ذروة مجدها في القرن 16م عهد سليم الأول، كما اتّسعت في عهد سليمان الأول القانوني (1520 – 1566م)، الذي فتح معظم بلاد اليونان و الجزائر و المجر و كثير من أنحاء فارس و بلاد العرب. **أنظر: الموسوعة العربية الميسرة**، مج1 المرجع السابق، ص 422.

5) **الموريسكيين:** آخر مسلمي الأندلس، و المصطلح اسباني مشتق من الكلمة اللاتينية موري (Mauri) و تعني مجموعة ذات بشرة سوداء، و تتفق معظم الدراسات التاريخية على أن مصطلح الموريسك (Moriscos) استعمل بعد سقوط غرناطة للدلالة على المسلم الذي دخل إلى المسيحية حديثا، و يرى الباحث "سيمون الحايك" بأن تسمية الموريسكيين ظهرت سنة 861هـ / 1463 م، في حين يرى "لوي كارداياك" (L.Cardiillac) أن المصطلح ظهر حوالي 967هـ/1560م. **أنظر:**=

التعذيب و الإهانة، مجبرة إياهم على الاختيار بين التنصير أو مغادرة البلاد، فاضطر الكثير منهم إلى التخلي عن ديارهم و الهجرة نحو سواحل المغرب الإسلامي، و لم يكتف الاسبان بذلك بل راحوا يلاحقون المسلمين في المغرب قصد منعهم من التفكير بالعودة إلى وطنهم، و شنوا الحملات العسكرية على سواحل بلاد المغرب الاسلامي، و هي الحملات التي اكتسبت طابع الحروب الصليبية، في حين أن الدولة العثمانية مطلع القرن 16م و التي كانت تتكون من قسم كبير من آسيا الغربية و جزء من أوربا الشرقية، لم يصل نفوذها بعد إلى افريقيا و لا إلى البحر الأبيض المتوسط، باستثناء قسم صغير من بحر إيجة[1]

و قد كان على رأس الدولة العثمانية في هذه الفترة السلطان بايزيد الثاني (1481 – 1512م) خلفا للسلطان محمد الفاتح[2].

و لمّا شرعت إسبانيا في توسعاتها الاستعمارية في شمال أمريكا و إفريقيا قابلتها الخلافة العثمانية بالفتح في آسيا و شرق أوربا، و حاولت مد نفوذها نحو افريقيا قصد قطع الطريق أمامها، ففتحت مصر عام 1514م، و كان الخلفاء على علم تام بالحالة التي يمر بها شمال افريقيا و مأساة مسلمي الأندلس، لذلك قرروا أن تنشأ دولة على أنقاض الإمارات التي بلغت مرحلة الشيخوخة و الانهيار المستحكم، لكن بُعدَ المسافة حال دون ذلك فاضطروا إلى إرسال أبناء يعقوب و بحارة آخرون للتدخل لإنقاذ المسلمين، و كان من بين أسباب اتجاه العثمانيين نحو شمال إفريقيا أيضا اكتشاف الاسبان للقارة الأمريكية

الميلق، مرجع سابق، ص ص 12 – 13. **أنظر أيضا:** حسن يوسف دويدار، **المسلمون المدجنون في الأندلس**، ط1، مطبعة الحسن الاسلامية، القاهرة، 1993، ص ص 9 – 11.

1) صالح حيمر، مرجع سابق، ص 8.

2) **محمد الثاني (1451 – 1481 م):** سابع سلاطين الدولة العثمانية، يلقب بالفاتح لفتحه القسطنطينية سنة 1453م، يقول عنه شارل بروكلمان:" ان انتصار البنادقة على العثمانيين في جاليبولي سنة 1419 م هو الذي حملهم على التفكير جديا في إنشاء اسطول بحري، و لكن محمد الثاني كان أول من أورث العثمانيين السمعة التي يستحقونها في البحر، لكن رغم ذلك يبقى أن الدولة العثمانية شهدت عهد سليمان القانوني فيما بعد اسطولا لم يسبق له مثيلا من قبل. **أنظر** : أحمد سالم، **السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط**، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 2011، ص 98. **أنظر أيضا: الموسوعة العربية الميسرة**، مج6، مرجع سابق، ص ص 3040 – 3041.

و ما تدره من ثروة سخرتها لتمويل حملاتها ضد المسلمين، بالإضافة إلى اقتناع الخليفة برسالة أحمد بن القاضي الفقيه أبو العباس الزواوي لعروج و التي يذكر فيها: " بلادنا بقيت إليك أو لأخيك أو للذئب "، و يقصد بالذئب الاسبان[1].

ج – التحرشات الاسبانية الأولى على سواحل المغرب الإسلامي:

كانت أوضاع المغرب الاوسط و بلاد المغرب ككل عاملا مشجعا للأسبان على الغزو و هذا ما جاء في تقرير موجه للملك الاسباني فرديناند سنة 1494 م جاء فيه:" إن كامل البلاد تجتاز حالة انهيار نفسي يظهر معها أن الله قد أراد منحها لأصحاب الجلالة"[2].

لذلك و ما أن استكمل الاسبان وحدتهم حتى دخلوا في منافسة كبيرة مع البرتغاليين حول المدن المغربية[3].

و لإنهاء الصراع القائم بينهما توصلوا إلى عدة اتفاقيات تفاهم أهمها: اتفاقية طليطلة سنة 1480م، و اتفاقية توردیسیلاس[4] سنة 1494م، و أخيرا اتفاقية سينترا سنة 1509م التي حددت مجال نشاط كل منهما، فكان مجال الاسبان يبتدئ بحجر بادس

---

1) بن علي شغيب المهدي، **أم الحواضر في الماضي و الحاضر (تاريخ مدينة قسنطينة)**، مطبعة البعث، الجزائر، 1980، ص ص 54 – 57.

2) Fernand Braudel **, Les Espagnols et L'Afrique Du Nord De 1492 a 1577** R.A, 1928, T19, p 211.

3) يذكر بعض المؤرخين الغربيين أن البرتغاليين قد احتلوا المرسى الكبير قبل الاسبان و ذلك في 14 أوت 1415م ، في عهد الملك البرتغالي يوحنا الأول، لكن تمكنت الدولة الزيانية آنذاك من استرجاعه سنة 1471 ، كما شن الملك البرتغالي ألفونس الخامس هجوما على وهران لكن الاحتلال لم يدم طويلا بسبب حصار الجزائريين ما أجبر البرتغاليين على الانسحاب سنة 1477م ، كما حاول البرتغاليون احتلال المرسى الكبير مرة أخرى سنة 1501م. **أنظر:** عبدالقادر فكاير، "**العلاقات الجزائرية البرتغالية خلال الفترة العثمانية**"، دورية كان التاريخية، ع18، ديسمبر2012، ص 25.

4) **اتفاقية توردیسیلاس Tordesillas:** بعد أقل من ثلاثة أسابيع من رجوع كريستوف كولمبس من غزوه لأمريكا، و بعد سنة فقط من سقوط غرناطة، خوّل البابا ألكسندر السادس إسبانيا حق ملكية الأراضي المكتشفة، و لكن في اليوم الثاني عدل عن نص الوثيقة و أشرك البرتغال، و هكذا تم توقيع معاهدة توردیسیلاس بينهما يوم 07 نوفمبر 1449م، و باركها البابا يوليوس الثاني فيما بعد يوم 24 جانفي 1506م. **أنظر:** مولود قاسم نايت بلقاسم، **شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830**، ط2، دار الأمة، الجزائر، 2007، ص 57.

و يمتد شرقه أما البرتغال فغرب حجر بادس [1]. و كانت بداية السيطرة الإسبانية على بلاد شمال إفريقيا من مدينة "مليلة" التي احتلتها سنة 1497م[2].

و قد حاول الاسبان استغلال ما عرف بمؤامرة المسلمين ضدهم و اتصال الأندلسيين بالخليفة العثماني، و بقية حكام الشمال الإفريقي بقصد الإعداد لحملة إنقاذ للمسلمين فقرروا القيام بعمليات طرد منظمة، ففي عام 1493م أي بعد عام من سقوط غرناطة قامت إسبانيا بإرسال جواسيس إلى المنطقة كان أشهرهم "دو زافرا" (De Zaffra) الذي تمكن من السفر إلى السواحل المغربية و طاف بها و نقل الوضع العام السائد، مركزا على وجود قبائل يمكن الاستعانة بها، كما أعطى وصفا للغنى الذي تتمتع به المنطقة[3].

كما قرّرت إسبانيا استكمال عمليات التجسس بإرسال "لورنزو دوباديليا" (Lorenzo De badilla) حاكم مدينة القلعة في الأندلس، نظرا لمعرفته الكبيرة لمنطقة المغرب و خلال فترة تواجده تمكن من السفر متخفيا داخل مملكة تلمسان، و مكّن الاسبان من الحصول على معلومات ساعدتهم على الانطلاق في تجسيد مشروعهم باحتلال "مليلة" عن طريق الدوق "دي مادينا سيدونا"(De Madina Sidona)[4]، كما اقترح دوباديا على الملك الاسباني التوسع من "مليلة" إلى غاية الجزائر العاصمة، غير أن هذا النشاط الاستعماري جمد إثر وفاة الملكة "إيزابيلا" عام 1504م، و أثناء معاودة تنشيط المشروع انقسم الرأي العام الاسباني فالنبلاء و الباحثون عن الثروة و بعض قادة الجيش فضلوا الاتجاه إلى العالم الجديد، بينما انصب اهتمام مملكة اراغون بملكها و سكانها على ايطاليا و ضم الكنيسة الكاثوليكية، و البعض الآخر رأى وجوب تنفيذ وصية "إيزابيلا" الملحة لخليفتها

---

1) عمار بن خروف، **العلاقات السياسية بين الجزائر و المغرب في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي**، دار الأمل، الجزائر، 2006، ص 47.

2) فيشر هربرت، **أصول التاريخ الأوربي الحديث**، تر: راشد زينب و أحمد عبد الرحيم، مر: أحمد عزب عبد الكريم، دار النهضة العربية، بيروت 1970، ص 78.

3) صالح كليل، **سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الاسباني لاحتلال المغرب الأوسط**، رسالة ماجستير، إشراف: علي آجقو، جامعة العقيد الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2006 – 2007 ص ص 64 – 65.

4) نايت بلقاسم، مرجع سابق، ص 51.

بضرورة توسيع السيطرة الكاستلية حتى تشمل جميع شمال افريقية [1]. فبدأ التفكير في المشروع الكبير نظريا في احتلال المغرب الأوسط انطلاقا من المرسى الكبير بعد احتلال مدينة "هنين" ثم "دلس"، إلا أن الاسبان تراجعوا عن احتلال هذين الموقعين و فضَّلُوا البدء باحتلال المرسى الكبير كخطوة أولى في المغرب الأوسط [2].

و يمكن القول أن تأخر احتلال و توغل إسبانيا في سواحل المغرب الأوسط يرجع لعدة أسباب منها :

- انشغالها بمد إمبراطوريتها في كل من جزر الهند وأمريكا الجنوبية، في المكسيك والبيرو، وفلوريدا، ماعدا البرازيل التي كانت من نصيب البرتغال [3].
- انشغالها بالحروب في أوربا بسبب محاولتها قيادة القارة الأوربية، واستمرت نحو ذلك مدة خمسة وستين سنة من (1494 – 1559م)، متخذة من إيطاليا ميدانا لحروبها ضد فرنسا، وقد استنزفت هذه الحروب قوتها البشرية والمادية، وشغلتها عن انجاز الكثير من المنجزات، إضافة للصراع بينها و بين إنجلترا بسبب الرغبة في التوسع الاستعماري وقد تمكنت إنجلترا من تدمير الأسطول الإسباني عام 1588م [4].

2 – المد الاسباني و احتلال مدن و سواحل المغرب الأوسط

أ– دوافع الاحتلال الاسباني :

كان الاحتلال الاسباني في المغرب امتدادا للحرب مع المسلمين، التي اصطلح عليها الاسبان حروب الاسترداد (Reconquesta)[5]، و هي التي اتخذت صبغة صليبية

---

1) جون. ب. وولف، **الجزائر و اوربا (1500 – 1830)**، ط. خ، تر و تع: ابو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص ص 25– 26.

2) De SANDOVAL, **" Les Inscriptions D'Oran et Mers EL-Kebir"**, R.A N9, 1865, p68.

3) نيقولا إيفانوف، **الفتح العثماني للأقطار العربية (1516–1574)**، تر: يوسف عطا الله، ط 2، دار الفارابي، لبنان، 2004، ص ص 43 – 44.

4) الجمل، مرجع سابق، ص 85.

5) **حروب الاسترداد (Reconquesta):** حروب طويلة خاضها النصارى في الشمال ضد المسلمين في الأندلس، و يعتبر المؤرخون الاسبان معركة كوفا دونجا سنة 718م هي البداية الحقيقية لهاته الحروب، اتّصفت هذه الحروب بشدتها و قسوتها، و لم تقل شراستها عما دار في الشرق من حروب=

لعبت فيها الكنيسة دورا بارزا، **لكن هل كانت الدوافع الدينية هي وحدها المسؤولة عن هذا العدوان الاسباني ؟**

لاشك أن التطورات التي عرفتها أوربا من جهة، و منطقة شمال افريقيا من جهة أخرى، منذ أواخر القرن الخامس عشرالميلادي، قد كان لها تأثيرها الواضح في هذا الصراع، و هذا ما يؤكده برودیل بقوله: (إن كل مؤرخي الكاردينال "خيمينيس"[1] "Ximenes" قد ركّزوا على الأسباب الدينية للمشاريع الاسبانية على هيئة صليب، هذه الأسباب لا يمكن إهمالها، و لكنها ليست الوحيدة فإسبانيا لا تضمن مستقبلها إلا إذا جاء اليوم الذي تصبح فيه سيدة السواحل الافريقية المواجهة لها)[2].

لذا يمكن القول بأن الاحتلال الاسباني لسواحل المغرب الاسلامي كانت تحركه دوافع عديدة، أما الاسبان فقد أعطوا لهذه الحركة صبغة دينية، بهدف ضمان الحماس الشعبي خاصة و أن (درجة الوعي الموجودة في ذلك الوقت لم تكن لتسمح بظهور الحركة على حقيقتها أمام أعين الشعب)[3]. و عليه يمكن حصر الدوافع الحقيقية لهذه الحملات في ما يلي :

صليبية، بل كانت الروح الدينية فيها أوضح و أغلب من تلك التي قامت في الشرق فكانت امتدادا لها و أعطت للبرتغال و إسبانيا دفعة قوية ضد العرب و المسلمين حتى أن الملك يوحنا الأول صرّح بأن الميدان الحقيقي الذي يكسب فيه أفراد البيت المالك الفخر هو ميدان الحرب ضد المسلمين في المغرب و أنه سيمنح اكبر وسام في بلاده – وسام السيد الأعظم – لمن يحارب، و نال هذا الشرف ابنه الثالث الأمير هنري. **أنظـــر:** رضوان، مرجع سابـــق، ص 41. **و أنظـــر أيـــضا:** دويدار، مرجع سابق ص ص 7 – 9.

1) **خيمينيس دي سيسنيروس (Ximenes de Cisneros):** كاردينال اسباني، ولد في قشتالة سنة 1436م، و توفي في طليطلة 1517م، أصبح مستشارا سياسيا لدى الملكة إيزابيلا، عيّن كمحقق في محاكم التفتيش في قشتالة (1507 – 1516)، و اشتهر بتعصبه الديني حيث فرض التنصير على مسلمي الأندلس، و لعب دورا بارزا في الاحتلال الاسباني لكثير من مدن و سواحل المغرب الاسلامي كوهران و بجاية. **أنظر:** Claude Dubois et Autres, **Le Petite larousse Illustre**, Paris, 2007, p 1236.

2) كورين شوفالييه، **الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510 – 1541م**، ترجمة جمال حمادنة، د. م. ج، الجزائر، 1991، ص 19.

3) جلال يحي، **تاريخ المغرب الكبير**، ج 3، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 18.

أ – 1) الدوافع الدينية :

لقد كتب الباحثون الأوربيون كثيرا حول الدوافع الدينية، و لهم في ذلك دراسات ممتعة، و الفكرة الأساسية التي تتجلى من خلال تلك الدراسات تؤيد تأييدا تاما أن هذه الحملات كانت تكتسي صبغة صليبية، فقد كان "فرديناند" و "إيزابيلا" شديدي التعصب الديني، و قررا مطاردة المسلمين إلى ما وراء حدود إسبانيا، و محاربة مسلمي شمال افريقيا، و تماشيا مع هذه الرغبة أصدر البابا "الكسندر السادس" [1] (Alexander VI) مراسيم بابوية خلال سنتي (1493 – 1494م) يبارك فيها إنجازات الملكين الاسبانيين و يحث على مواصلة الحرب الصليبية ضد افريقيا الاسلامية [2].

فالمسيحية إذا كانت الدافع وراء توسيع نطاق حدود التعصب الديني، فالكاردينال "خيمينيس" قدم من ماله الخاص ما يكفي لإعداد اسطول كامل، كما لعب رجال الدين الأسبان الآخرون أمثال القس " ليو ماتران"(Leo Matran)، و الكاردينال "بوركوس" (Bourkouss) الدور الأساسي في إعداد الحملات الاسبانية و توجيهها، بل قدموا من مالهم الخاص المبالغ التي أمكن بها تجهيز الحملات، و لم يكتفي رجال الدين الاسبان بذلك، بل راحو يستنجدون بكنائس إسبانيا و اوربا الأخرى لدفع المال و المساهمة في الحرب الدينية [3].

كما اعتبر الاسبان شمال افريقيا بمثابة نقطة الوثوب لإعادة فتح إسبانيا من طرف المسلمين و المغاربة، و كانت في نظرهم السند العسكري القوي الذي أخّر عملية الاسترداد عدة قرون، رغم ما كان عليه مسلموا الأندلس من ضعف و تمزق لذا حرّضت الكنيسة الاسبان خصوصا و سكان أوربا عموما على مواصلة الحرب ضد الاسلام و المسلمين [4].

---

1) **الكسندر السادس (Alexander VI):** تولى منصب البابوية (1492 – 1503)، و هو الذي فرض ضريبة الصليب على المسيحيين، و ذلك لتجنيد الحملات الصليبية ضد المسلمين، و قد اشتهر بتقسيمه لمناطق النفوذ في العالم بين إسبانيا و البرتغال. **أنظر:** حيمر، مرجع سابق، ص 19.

2) نفسه، ص 27.

3) كليل، مرجع سابق، ص 59.

4) عبد الجليل التميمي، " **الخلفية الدينية للصراع الاسباني العثماني على الإيالات المغربية في القرن 16 م** "، م. ت. م، ع 6، تونس، 1978، ص 44.

كما كانت وصية الملكة "إيزابيلا" [1] حافزا لمواصلة الحرب ضد المسلمين بالمغرب سيما أيضا رجال محاكم التفتيش الذين ظلو يغذون على الدوام نار التعصب و ما زاد في قلق الاسبان ظهور النشاط البحري الإسلامي على سواحل المغرب الإسلامي و رفعه لمبدأ الجهاد [2].

أ – 2) الدوافع الاستراتيجية:

لقد كان البحر المتوسط و ما يزال إلى يومنا هذا يتمتع بموقع استراتيجي هام بالنسبة للقارات الثلاث التي تحيط به، إلى جانب انفتاحه على المحيط الأطلسي في جهته الغربية، و كانت الدول المطلة عليه تسعى على الدوام لتفوز بمكانة متميزة تجعلها تنفرد بفرض هيمنتها عليه، أو على الأقل أن يكون لها نصيب من السيطرة على خطوط ملاحة السفن فيه، أو احتلال المواقع البرية الرئيسية المطلة عليه [3].

و من هذه الزاوية سعى الملوك الاسبان إلى احتلال المغرب الأوسط و كذا بقية بلاد المغرب، حتى يتمكنوا من فرض هيمنتهم على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط و التحكم في مدخله المتصل بالمحيط الأطلسي عبر مضيق جبل طارق الذي بدأ الإبحار فيه نحو العالم الجديد ضرورة اقتصادية تستدعى الهيمنة عليه [4].

أ – 3) الدوافع الاقتصادية:

تعرضت إسبانيا إلى انهيار اقتصادي رهيب بعد طرد المسلمين و اليهود من أراضيها، و هم الذين كانوا يشكلون العمود الفقري لاقتصاد بلاد الأندلس، و بذهابهم تعطل الإنتاج و غابت وسائل التصنيع، فتوجه زعماء هذا البلد إلى اكتساح بلاد المغرب

---

1) "..إنني أرجوا الأميرة ابنتي (جين) و الأمير زوجها (فيليب) و آمرهما بإطاعة وصايا أمنا المقدسة الكنيسة طاعة تامة، و أن يكونا حُماتها و المدافعين عنها حسبما يقتضي واجبهما، و أن لا يكُفَّا عن متابعة فتح افريقيا، و محاربة الكفار في سبيل الإيمان.. ". **أنظـــر:** فـــارس، مرجع سابق ص 12.

2) كليل، مرجع سابق، ص 62.

3- Braudel **, la méditerranée et le monde**.., T1, Op.cit, pp 94 – 95.

4) عبد القادر فكاير، **الغزو الاسباني للسواحل الجزائرية و آثاره (1505 – 1792 م)**، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2012، ص ص 33 – 34.

و على وجه الخصوص بلاد المغرب الأوسط رغبة في الحد من هذه الأزمة الخانقة من خلال الاستفادة من موارده المتنوعة[1].

و مما لاشك فيه أن بلاد المغرب كانت تتوفر على خيرات لم تكن موجودة في أوربا حتى عصر الكشوفات الجغرافية، و كان التجار الأوربيون يجوبون كثيرا بلاد المغرب خاصة المدن الساحلية، و حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ظل النشاط التجاري "للبندقية" و "فلورنسا" و "جنوة"[2] مستمر و مزدهر في مملكة تلمسان[3].

و هناك جانب اقتصادي آخر يستدعي تأمينه من خطر البحارة المسلمين الذين كانوا يجوبون أطراف البحر المتوسط، فمن وراء تلك الحملات كان الاسبان يهدفون إلى حماية طرق مواصلاتهم مع جزيرة صقلية، التي كانت تزودهم بالحبوب[4].

كما تمثلت رغبة أوربا وعلى رأسها إسبانيا والبرتغال في إقامة إمبراطورية واسعة[5] خاصة بعد اكتشافهما العالم الجديد، واكتشاف الطرق التجارية، ولذلك عملتا على احتلال سواحل المغرب لتأمين المواصلات البحرية بين مختلف الموانئ التابعة للمدن الإيطالية، وأصبح بذلك ملوك أوربا يصوّبون أنظارهم نحو القارة الإفريقية والعالم الجديد حيث وجه ملوك إسبانيا توسعاتهم شمالا وجنوبا وغربا فذاقت أوربا ذاتها ويلاتهم لأنهم أرادوا إعادة أمجاد الإمبراطورية البيزنطية خاصة في الميدان التجاري[6].

---

1) أنطونيو دومينغيز هورتز، برنارد بنثنت، **تاريخ مسلمي الأندلس**، تر: عبد العال صالح طـــه ط 16، دار الشروق، قطر، 1988، ص ص 251 – 268.

2) جنوة جزيرة تقع بالقرب من البندقية. **أنظر**: http://ar.wikipedia.org/wiki

3) فكاير، مرجع سابق، ص ص 31 – 32 .

4) أندري كلو، **سليمان القانوني**، تر: البشير بن سلامة، دار الجيل، بيروت، 1991، ص 168.

5) أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)**، ط 1، دار البصائر للتوزيع والنشر، الجزائر، 2007، ص ص 77- 78.

6) نفسه، ص 79.

أ – 4) الدوافع العسكرية:

بعد سقوط آخر معاقل المسلمين (الأندلس)، وانتشار محاكم التفتيش [1] وهجرة الموريسكيين إلى شمال المغرب العربي وإلى المشرق العربي أيضا، اشتدت وطأة البحارة المسلمين على الإسبان بصفة خاصة[2].

وهنا لابد من التمييز بين البحارة والقراصنة، وفي هذا الصدد يقول جون وولف: " القرصان هو الشخص الحر في النهب، ولا يعترف بأي سلطة ...، فكان يهاجم بدون تمييز سفن أي دولة... لكن رياس البحر، كانوا أشخاصا موكّلين من غيرهم للقيام بهذه المهمة، ولم يشنّوا حربا إلا على أعداء أميرهم..."[3].

أما مولاي بلحميسي فيفرق بينهما بقوله:" القرصان يسعى في البحار لحسابه الخاص، دون أن يحصل على ترخيص من حكومته، إنه ليس سوى لص مسلح، أما البحار فهو مقاتل نظامي قنّاص في البحر، يهاجم أعداء أمته، ليحصل منهم على نصيب معلوم و على سفينته علم بلده"[4].

و يرجع مصطلح القرصنة إلى أوربا، وقد نسبتها إلى العرب حقدا وغيضا فالقرصنة قد بدأها الأوربيون بشكل كبير في القرن الرابع عشر الميلادي[5]، أما بالنسبة للمسلمين فلم تكن حربهم في البحار قرصنة، وإنما كانت جهادا بحريا ضد الصليبيين وهذا ما تجلى في انقاذ أهل الأندلس الذين اضطهدتهم إسبانيا، لذلك استعمل الأوربيون مصطلح

---

1) **محاكم التفتيش:** هيئات أنشأتها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية للقبض على من سموهم المهرطقين المارقين (الأشخاص المعارضون لتعاليم الكنيسة) ومحاكمتهم. أقيمت محاكم التفتيش في كثير من أجزاء أوروبا، ولكن محكمة التفتيش الأسبانية كانت هي الأكثر شهرة. وأشهرها تلك المحاكم التي أقامها فرديناند الخامس وزوجته إيزابيللا للتجسس على أهل الأندلس الذين فرضت عليهم النصرانية وقد نكلت بالمسلمين بوحشية. **أنظر: الموسوعة العربية الشاملة،** مرجع سابق. **أنظر أيضا:** لوي كارديناك، **الموريسكيون الأندلسيون و المسيحيون،** تع و تق: عبد الجليلي التميمي، منشورات م. ت. م، تونس، 1983.

2) وولف، مرجع سابق، ص 179.

3) نفسه، ص 179.

4) حيمر، مرجع سابق، ص 30.

5) عبد الحميد بن أشنهو، **دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر،** الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر 1972، ص 19.

القرصنة لتغذية النزعة الصليبية، ولتكون ذريعة لمحاربة المسلمين في عقر دارهم، فكانت الحاجة إلى إزالة القرصنة والقضاء عليها، حافزا للتدخل في ظل انقسام المغرب العربي إلى دويلات التي تشهد الصراع والتناحر [1].

أ – 5) رغبة الاسبان في التوسع الاستعماري :

فمنذ سقوط غرناطة اتجه الاسبان إلى سياسة توسعية تتعلق بانتهاج سياسة استعمارية في افريقيا، تنطلق أولا من من المناطق الساحلية، ثم التوغل فيما بعد إلى الجهات الداخلية، و قد كان هدف الكاردينال خيمينيس ليس العزم على احتلال وهران كهدف نهائي، و لكنها وسيلة للتوغل و الانطلاق من أجل احتلال كل افريقيا، إذ بعد ثلاثة ايام من احتلال وهران كتب الكاردينال خيمينيس لزعماء بلاده يدعوهم لإرسال المزيد من الاسبانيين، كما طلب من السلطات العسكرية البقاء و الشروع في تنفيذ المخطط الاستعماري للأراضي الإفريقية [2].

و في هذا السياق أرسل الملك " فرديناند" خطابا إلى "بيدرو نافارو" (Bedro Navaro) في شهر ماي سنة 1510 م يدعوه فيه، أن عليه ألاّ يترك أحدا من سكان المدن التي يحتلها في شمال أفريقيا و ذلك من أجل إعمارها مستقبلا بالمسيحيين فقط و إلاّ فإنه من المستحيل الاحتفاظ بها لمدة طويلة [3].

لكن فرديناند و الذين تلوه من الملوك الاسبان لم يفلحوا في تطبيق هذه السياسة، لأنهم لم يرضوا بالتخلي عن الدور الذي كانوا يمارسونه في ايطاليا و كذلك في ألمانيا محتفظين بكل قدراتهم المالية و العسكرية من أجل الحروب الأوربية [4].

---

1) شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، تر:محمد مزالي والبشير سلامة، ج 2، ط 2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983، ص 322.

2) فكاير، مرجع سابق، ص 39.

3) Louis Salvatore de Habsbourg Archiduc d'Autriche , **Bougie la perle de Afrique du nord** , Traduction de Viviane jambert , L'Harmattan , Paris, 1999, p37.

4) فكاير، المرجع السابق، ص 40.

ب – احتلال المرسى الكبير و وهران :

ب– 1) احتلال المرسى الكبير

بمجرد أن أَتَمَّ الملك الاسباني "فرديناند" تجهيز الحملة التي موّل اسطولها الكاردينال الوزير "خيمينيس" بأمواله الخاصة، بشرط أن يكون ذلك قرضا من الكنيسة [1]، توجّه الأسطول الاسباني لغزو المرسى الكبير [2]، فغادر "ملقة" في أوت 1505م، تحت قيادة "الدون رايموند دي قرطبة" (Don Raymond Di Cordoue)، و كان الأسطول ينقل معه قوة من الجيش تقدر بحوالي 5 آلاف رجل بقيادة "دون ديتوفر فرناندیز" (Don Ditfourre Fernandez)، وصل الأسطول إلى المرسى الكبير يوم 11 سبتمبر، و أحكم الحصار على المدينة لمدة خمسين يوما، و ظلّت الاشتباكات خلال هذه الفترة مستمرة[3].

و عندما بدأ الاسبان الإنزال قاوم المسلمون مقاومة يائسة و عنيفة، رغما مما أبدوه من شجاعة و حميّة [4]، إلاّ أن المدفعية الاسبانية قد اضطرّتهم لترك مراكز الدفاع و الانسحاب للداخل، و بسبب أيضا اختلال موازين القوى بين الطرفين بعد مقتل قائد الحامية، أثناء الليل تشاور سكان المدينة فيما بينهم في اجتماع عقدوه في دار المزوار و كانت الاغلبية تميل الى متابعة الجهاد في حين كانت أقلية ترغب في الاستسلام و حجتها أنه من المحال على الحامية التي لا تزيد في الأصل عن خمسمائة رجل التغلب على قوة مشكلة من خمسة آلاف مقاتل إسباني، و في المقابل فإن انتصار الاسبان يعني استباحة المدينة و أهلها [5].

---

1) الراشدي، **الثغر الجماني** ..، مصدر سابق، ص 11.

2) **المرسى الكبير:** أحد موانئ وهران، و لا يفصلها عنه سوى مسافة حوالي 7 كلم، " كان يعد أحسن و أوسع و أهدأ ميناء من موانئ العالم". **أنظر:** بن اشنهو، مرجع سابق، ص 47.

3) Emmanuelli Rene, **Genes et l'espagne dans la Guerre de Course (1559 – 1569)**, Ed/société Méditerranéennes, Paris, 1964, pp 307 – 309.

4) أطنب كثير من المؤرخين الأوربيين في ذكر معركة المرسى الكبير و أشادوا بدفاع المجاهدين الجزائريين ضد تلك الحملة القوية، و قد لخص كل ذلك تقرير المؤرخ الفرنسي دو غرامون. **أنظر:** Henri De Grammont, **Histoire D`Alger sous la Domination Turque** (1515 – 1830), Ernest Leroux Editeur ,Paris,1887.

5) المدني، مرجع سابق، ص 87.

ليتم في النهاية مفاوضة الاسبان على تسليم المدينة بشروط تتضمن انسحاب المسلمين من المدينة و الحصون الموجودة بها، في أجل أقصاه ثلاث ساعات دون أخذ أسلحة أو حيوانات و لا حتى شيء من الزاد أو المؤونة، و عندما تم الانسحاب اقتحم الاسبان المدينة و ذلك يوم (24 جمادي الثانية 911هـ / 23 اكتوبر 1505 م)[1] و رفعوا أعلامهم فوقها، و توجه القائد الأعلى إلى مسجد المدينة الأعظم، و أمر بتحويله إلى كنيسة أطلق عليها اسم كنيسة القديس "ميكائيل"، ثم شرع الاسبان في تحصين المدينة على الفور، كما أنشأوا سوقا تجاريا لتأمين متطلبات الحامية الاسبانية هناك من جهة و لإقامة علاقات مع السكان من جهة ثانية، و قد أغدقت الحامية الاسبانية الذهب و الفضة على المتعاونين معها من التجار، غير أن المسلمين اعتبروا ذلك خيانة[2].

عيّن الملك الاسباني القائد "بيدرو نافارو" كوال عسكري على المرسى، و أقيمت الاحتفالات الاسبانية بقرب انتشار المسيحية، حيث استعظم الاسبان احتلالهم للمرسى و ظنوا أنهم قادرون على احتلال باقي افريقيا بالسهولة نفسها، و بدأ الإعداد للمرحلة الثانية من التوسع حيث جهز "فرناندیز" حملة بهدف الإغارة على "مسرغين" [3]، متبعا الطرق الجبلية و الأودية، و جند أدلاء و مرتزقة بالمال من بعض القبائل المنتشرة حول المرسى الكبير و وهران، غادرت الحملة يوم 06 جوان 1507م ليلا، و ضمّت القوة الاسبانية بكاملها تقريبا و وصلت هدفها مع الفجر[4]، و أحاطت بالقبيلة مستفيدة من عامل المباغتة فدمرت مقاومتها بسرعة و استولت على الغنائم، غير أن وصول نجدة من القبائل

---

1) مارمول كربخال، **افـــريقـــيا**، تر: محمد حجي و آخرون، ج 3، دار نشر المعرفة، الرباط 1989، ص 328. **أنظر أيضا** : الحسن الوزان، **وصف افريقيا**، تر: محمد حجي و محمد الأخضـــر ط 2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1993.

2) Amar Amoura , **Resume de L`Histoire de L`Algerie**, Edition Raihana, 2002 p 11.

3) **مسرغين:** قرية صغيرة تبعد ثلاث مراحل عن المرسى الكبير، و يصل بينهما طريق سهلي يمر من تحت حصون مدينة وهران و لم تكن يومذاك سوى مضارب لقبائل عربية ذات ثروة و غنَى تدعى " دوار الغرابة ". **أنظر:** المدني، مرجع سابق، ص 93.

4) Contereras. j et Dedieu.j.p **, Formation de L`Inquisition Espagnole (1470 – 1820)**, Espagne, 1980, pp 37 – 39.

المجاورة ألحق هزيمة ساحقة بالاسبان، و سقط منهم ثلاثة آلاف قتيل فكانت هذه أول هزيمة للأسبان في المغرب الأوسط[1].

ب- 2) احتلال وهران :

بعد الهزيمة في مسرغين و نجاة قائد الحملة الاسبانية بنفسه مع قــوة صغيرة توجّه بعدها إلى إسبانيا لتقديم تقريره، فأرسلت الحكومة الاسبانية على إثر ذلك دعما عاجلا لحماية المرسى الكبير يضم خمسمائة محارب تحسبا لأي محاولة لاستغلال هذه الهزيمة لمهاجمة المرسى، و بدأ الكاردينال "خيمينيس" في تجهيز حملته الكبرى لاحتلال وهران[2].

ما أن انتهت الاستعدادات حتى انطلقت الحملة من مرسى قرطاجنة الاسبانية يوم 16 ماي 1509 م، بقيادة "بيدرو نافارو" (Pedro Navaro)، بقوة تضم خمسة عشر ألف مقاتل، وصلت المرسى الكبير في اليوم التالي، و كان قائد المرسى الكبير قد هيأ للحرب بطريقة أخرى حين اشترى ذمة بعض من قابضي المكوس و هم القائد "عيسى العريبي" و "ابن قانص"، و تلقوا أوامر بفتح أبواب المدينة بمجرد وصول الحملة و بداية الحصار كما تمكن من شراء ذمة اليهودي سطورا[3].

و رغم استعدادات حامية وهران و اصطدامهم بالقوات الاسبانية خارج المدينة، إلا أن تفوق الأسلحة النارية الاسبانية أرغمهم على العودة للمدينة للاستفادة من تحصيناتها لكن ما لبث سطورا و أعوانه من فتح الأبواب للاسبان الذين دخلوا المدينة من عدة

---

1) المدني، مرجع سابق، ص ص 94 – 95.

2) **وهران:** أشهر مدينة في الغرب الجزائري، تقع داخل الخليج الذي يحمل اسمها، لا يثبت التاريخ القديم شيئا عنها، و ربما كانت مستعمرة رومانية تدعى كيزة " Quiza "، لكن الثابت أن مسلمي الأندلس، كانوا مؤسسيها سنة (390هـ / 902 م) على يد القائد خضر، أيام الأمير عبد الله الأموي والد الخليفة عبدالرحمان الثالث ، أما المدينة العربية التي احتلها الاسبان فمبنية على جانبي فج وادي الرحى، و قد احصيت الديار عند الاحتلال فكانت حوالي ستة آلاف دار، اي نحو 30 ألف من السكان. **أنظر:**المدني، المرجع السابق، ص ص 103 – 104. **أنظر أيضا:** عاشور شرفي، **مَعْلَمة الجزائر "القاموس الموسوعي"**، د.ط، دار القصبة، الجزائر، 2009، ص 73.

3) **سطورا (اشطورا):** يهودي من مهاجري الأندلس الذين أنقذهم مسلمي مدينة وهران من المحارق الاسبانية، و كان يشتغل قابض المكوس العام لمدينة وهران. **أنظر:**المدني، المرجع السابق، ص 100.

جهات، رغم ذلك استمرت المقاومة لمدة خمسة أيام حول المسجد الأعظم في حي الفقيه و لم تتوقف حتى استشهد أغلب رجال المدينة، فيما لم يمت من الاسبان أكثر من ثلاثين شخصا، و استسلم الباقي بناء على الوعد بحماية الأرواح و الأموال[1].

لكن الاسبان لم يحترموا هذه الوعود و فعلوا فيها ما فعلوه بالمرسى الكبير من تقتيل و تخريب و هتك للأعراض[2]، فقاموا بقتل ثمانية آلاف من الأبرياء[3]، و أسر الآلاف كما تمّت مصادرة الأرزاق و الأموال، و لم تنج حتى الأثريات و المخطوطات العربية و بعض التحف الأثرية من السرقة و مفتاحا المدينتين، و هي التي تم وضعها في كنيسة طليطلة[4]، كما قام الكاردينال "خيمينيس" ديرا لتنصير المسلمين و نصب مفتشا لمتابعة اليهود و الزنادقة، و قام بتحويل كل مساجد وهران إلى كنائس، كما جعل المسجد الأعظم كاتدرائية[5].

نتج عن الحكم الاسباني لوهران مجموعة من التحولات من أهمها: خضوع قبيلة بني عامر للحكم الاسباني و أصبحوا أعوانا كجند و عيون، و اعتراف "أبو حمو الثالث"[6] حاكم الدولة الزيانية تبعيته و خضوعه للحكم الاسباني، و تقديمه جزية سنوية مع تعهده بعدم القيام بأي فعل يضر بعلاقة الصداقة مع إسبانيا[7].

بقيت وهران مستقلة عن التاج الاسباني لفترة أربع سنوات، حيث كان الاسبان ينظمون اثناءها جلساتهم بالاستعانة ببعض الجزائريين من جملتهم اليهودي سطورا و تجار مسلمين كانوا مكلفين بمسك العشور، و هذا إلى غاية ربطها مباشرة بالتاج

---

1) المدني، مرجع سابق، ص ص 100 – 101. **أنظر ايضا:** عبد الرحمان محمد الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، ج 3، دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2010، ص 279.

2) يحي بوعزيز، **الموجز في تاريخ الجزائر(الجزائر الحديثة)**، ج2، د. م. ج، الجزائر، 2009 ص 9.

3) سالم، مرجع سابق، ص 73.

4) نايت بلقاسم، مرجع سابق، ص 129 .

5) كليل، مرجع سابق، ص 48

6) **ابي حمو موسى الثالث** (1516– 1528):الملك الرابع والعشرون في الدولة الزيانية في تلمسان حتى أقصاه القائد العثماني عروج بربروسا **أنظر:** ويكيبيديا http://ar.wikipedia.org/wiki

7) المدني، المرجع السابق، ص ص 102 – 103.

الاسباني بعد ذلك [1]، و هذا تحت إدارة عسكرية خاضعة لقائد الجيش، و سميت المدينتان بريسيديوس، و شرع في العمل نفسه مع بقية المناطق المقرر احتلالها، و قد سمي قصر الوالي بوهران كورتا شيكا (Corta chica) اي أميرال القصر الصغير، و ظلت وهران بذلك تحت السيطرة الاسبانية لمدة ثلاث قرون كاملة (1505 – 1792 م) باستثناء فترة تحريرها الأول، و كانت ذات أهمية كبيرة للاسبان حيث اعتبروها باب إسبانيا (Porte de Espagna) المفتوح على بلاد المغرب العربي و البلاد الاسلامية، كما كانوا يسمونها في وثائقهم بالمناطق الهامة (Guidad nobley leal).[2]

ج- احتلال بجاية و اخضاع باقي المدن و السواحل

نقل الاسبان هجومهم من المغرب إلى المشرق، و كانت بجاية [3] هي الهدف التالي للكاردينال خيمينيس الذي أمضى وقتا للاستعداد بعد استيلائه على المرسى الكبير و وهران و سيطرته على مواقع حساسة أخرى لمراقبة البحر المتوسط و الاستحواذ على التجارة و الملاحة [4].

بدأت عملية الاحتلال بمناورة خداعية، حيث غادرت السفن الاسبانية المرسى الكبير في 30 نوفمبر 1509م بقيادة "بيدرو نافارو" (Bedro Navaro)، باتجاه جزر البليار و قضت هناك شهر ديسمبر القاسي، و انضمّت إليها قوات دعم إضافية من إسبانيا، ثم أقلع الأسطول بقوة 20 سفينة كبيرة تحمل عشرة آلاف مقاتل معززة بالمدفعية و آلات عديدة و سلاح وفير، لتصل مدينة بجاية يوم 5 جانفي 1510م، و بدأت معركة كبيرة

---

1) الزياني، مصدر سابق، ص ص 111 – 116.

2) Pedro de Madrid, **" Lettre de Mers el-Kebir , 17sep 1492 a 1577 "** , R.A N 69, 1928 , pp 196 – 200.

3) **بجاية:** مدينة شرق الجزائر، اختطّها الملك الحمادي الناصر سنة (469 هـ / 1076م) و اتّخذها عاصمة لمملكة بني حمّاد، إلى أن تسلّمها منه الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي سنة (547هـ/ 1152 م)، و قد ظلت تحت سلطة ملوك بني زيان، ثم تحت سيطرة الحفصيين إلى أن استولى عليها الاسبان، و كانت أيام احتلالها تشمل ثمانية آلاف من الدور، و صفها ليون الافريقي أنها كانت محاطة بأسوار عالية، و تشمل ثمانية آلاف أسرة، و ديارها جميلة البناء حسنة المنظر، و أنها كانت زاخرة بالمساجد و المدارس. **أنظر:** المدني، مرجع سابق، ص ص 112 – 113. **أنظر أيضا:** مارمول مرجع سابق، ص ص 376 – 377.

4) كليل، مرجع سابق، ص 50.

بتبادل نيران المدفعية بين حامية بجاية و الاسبان، إلى أن تمكنت القوات الاسبانية من اقتحام المدينة بعد معركة كبيرة، إلا أن سكان المدينة و عددهم ثمانية آلاف انسحبوا إلى الجبال و على رأسهم الملك "عبد الرحمان"، لأنهم كانوا يتصورون أن الاسبان لن يلبثو أن ينسحبوا بعد نهب المدينة [1]، و هذا ما لم يحدث، حيث أسفرت العملية على انتصار الاسبان و إبادة أكثر من أربعة آلاف مسلم و تدمير كامل للمدينة، و القضاء على أغلب المعالم العمرانية، الدينية و الأثرية [2]

وقد كان لاحتلال الاسبان لبجاية مكاسب عديدة من أهمها : خضوع السلطان الحفصي بتونس "أبو عبد الله" و دفعه للجزية، و تعهد مدينة الجزائر و حاكمها سالم التومي، بدفع الجزية أيضا، و تسليم الجزر الساحلية الشرقية المقابلة لبناء قاعدة عسكرية بحرية للاسبان [3].

و أمام الخراب الذي أصاب المدينة و عزلة الحامية الاسبانية هناك، أرسل الملك "فريديناند" للحاكم العام "أنطونيو دي رافانيدا" (Antonio di Raffanida) للسماح بعودة المسلمين إلى المدينة و ضمان سلامتهم و حرية القيام بشعائرهم الدينية، ثم انتقلت إسبانيا إلى احتلال عنابة في العام نفسه و المدن المحاذية لها، كما عمل بيدرو نافارو على انتهاج نفس الأسلوب المعتاد في التعامل مع الأهالي و التحالف معهم، حيث قام بتقديم المساعدة الطبية للملك عبدالله على استعادة بصره [4].

أعلن ولاءه لإسبانيا و العمل تحت رايتها و عين ملكا على بجاية، كما تم الاتفاق مع عبد الرحمان و تعيينه كملك على جبال البربر و تم تقسيم مناطق النفوذ بين الأخوين و ممارسة الحكم تحت الإشراف الاسباني [5].

و أمام تنامي خطر القوة الاسبانية على سواحل المغرب الأوسط أرادت بعض المدن الجزائرية أن تشتري السلم و الأمان من الأسطول الأسباني حيث قدّم سكان مستغانم

---

1) مارمول، مصدر سابق، ص 377.

2) المدني، مرجع سابق، ص ص 109 – 111.

3) بوعزيز، مرجع سابق، ص ص 9 – 10.

4) كان قد تعرض للكي على العينين من قبل شقيقه عبد الرحمان ففقد بصره. **أنظر:** المدني، المرجع السابق، ص117.

5) كليل، مرجع سابق، ص 51.

و تنس فروض الطاعة و الولاء للأسبان بوهران، و أصبحت بذلك أهم مدن و سواحل المغرب الأوسط من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب تحت هيمنة الأسبان[1].

3 – أوضاع المغرب الأوسط الداخلية و ميلاد الدولة الجزائرية الحديثة

أ- أوضاع المغرب الأوسط الداخلية :

بعد سقوط دولة الموحدين عام 260هـ / 1276 م انقسمت بلاد المغرب الاسلامي إلى ثلاث دويلات إقليمية[2] الحفصيون في المغرب الأدنى، بنو زيان[3] في المغرب الأوسط، و بنو مرين بالمغرب الأقصى، إضافة إلى بني الأحمر في الأندلس[4].

و كانت إمارات المغرب خصوصا تعاني الضعف والانقسام، و تميز وضعها الداخلي بالتأزم و الفراغ السياسي، و شيوع البداوة، و ثنائية السلطة، سلطة دينية تمثلها الزوايا التي أصبحت قوى سياسية منافسة للسلطة السياسية التقليدية[5]، ما نتج عنه صراع محلي أدى ذلك إلى تعفن الوضع السياسي وإزدياد الانحطاط[6].

---

1) بوعزيز، مرجع سابق، ص 10.

2) رقية شارف، " **تشكل الكيانات السياسية للمغرب العربي في إطار الدولة العثمانية (الفترة الحديثة)**"، م. د. ت، جامعة الجزائر 2، العدد13، الجزائر، 2011، ص 132.

3) يقول عنها المدني: (كانت الدولة الزيانية أعظم و أزهر دولة إسلامية تأسست بهذه الديار، فكان نجمها الزاهر يتألق في الغرب سناه، أسطع مما كان نجم بني حماد قبل ذلك في الشرق)، و قد قامت بتأسيس هذه الدولة العظيمة قبيلة بني عبد الواد البربرية، بعد أن أقطعهم الموحدون أرضا فسيحة و دانت لهم بالولاء، إلى أن أخذ نفوذ بني عبد المؤمن يتضاءل، فأسس جابر بن يوسف سنة 627هـ دولة بني عبد الواد، و أعلن استقلالها في تلمسان عن سلطة الموحدين سنة 633هـ على يد يغمراسن. **أنظر:** أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، منشورات ANEP، الجزائر، 2010، ص 40.

4) **بنو مرين**، ثم **بنو الوطاس** بالمغرب الأقصى (غرب ملوية إلى أقصى منطقة السوس) (1269 – 1549م)، و **بنو زيان** في المغرب الأوسط (تلمسان) من إقليم الجزائر إلى منطقة ملوية (1236 – 1554 م)، و **الحفصيون** في المغرب الأدنى (من طرابلس إلى نواحس دلس) (1229 – 1574 م)، و نشير إلى أن هذه الحدود لم تكن مستقرة، بل كانت في حالة مد و جزر إلى أن تشكلت الكيانات المغربية في الفترة الحديثة. **أنظر:** شارف، المرجع السابق، ص 147.

5) نفسه، ص 132، 133.

6) حنيفي هلايلي، **النظام الحربي للجزائر في العهد العثماني منذ مطلع القرن 17 حتى 1830**، رسالة دكتوراه، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2003 – 2004، ص 08.

و قد ظلّت هذه الإمارات مهيمنة على المنطقة، مع سعي كلّ منها إلى فرض نفوذها على نظيراتها [1]، فيما تعرضت إمارة بني مرين إلى محاولات استعمارية مبكرة من طرف الإسبان والبرتغال [2].

ونقتصر هنا على أوضاع المغرب الأوسط الذي كان يعيش الأوضاع المشار إليها إذ أدت الخلافات والصراعات السياسية بين قادتها إلى تلاشي سلطة بني عبد الواد وانحصارها في الجزء الغربي من البلاد متخذة من تلمسان [3] عاصمة لها، ونظرا لهذه الظروف فقد أصبح المغرب الأوسط عرضة للكثير من المؤامرات والدسائس الداخلية التي أشعلتها قبائل عانت الظلم والاضطهاد، أو حركتها أيادي السلطة الحاكمة الطامعة في العرش، وهذا ما أدى إلى سقوطها في نهاية الأمر سيما بعد أن ركن ملوكها إلى التخاذل وتقاعسوا عن القيام بمصالح العامة، حيث استبدّ الولاة ورؤساء القبائل والشيوخ فانتشرت الفوضى و انمحت صورتهم وهيبتهم من نفوس الرعية [4].

ويظهر لنا أن المغرب الأوسط قد سادته الاضطرابات من جرّاء تطاحن الدولتين الزيانية والحفصية، هذه الأخيرة التي كانت تسيطر مع بداية القرن 16م على الشرق الجزائري إلى حدود بجاية [5]، هذا على جهة الشمال والشرق، أما المناطق الداخلية والجنوبية فقد تصرفت في حكمها بعض الأسر مثل مشيخة مدينة الجزائر التي كان يحكمها الثعالبة بقيادة "سالم التومي" [6]، أما تقرت فكانت خاضعة لأسرة "بني جلاب"، في

---

1) حنيفي، المرجع السابق، ص 08.

2) جلال يحي، مرجع سابق، ص11.

3) **تلمسان:** مدينة المغرب الأوسط، و دار ملك زناتة، و متوسطة قبائل البربر، حيث اتخذها بنو عبد الواد عاصمة لهم و دار ملك بقيادة يغمراسن. **أنظر:** أحمد موساوي، "**الأمير الأمازيغي أبو حمو موسى الثاني**"، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة الجزائر، ع 7، ماي 2008، ص 86.

4) المدني، **حرب الثلاثمائة سنة**، مرجع سابق، ص 58 وما بعدها.

5) عبد القادر حليمي، **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830**، ط1، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972، ص ص 203- 204.

6) كانت الجزائر (جزائر بني مزغنة) تحكمها هيأة بلدية مستقلة، **على** رأسها الرجل الصالح سيدي عبد الرحمان الثعالبي، فلما مات خلفه سالم السالمي، و انتقلت الرئاسة من الثعالبة إلى بني سالم. **أنظر:** المدني، **كتاب الجزائر**، مرجع سابق، ص 46.

حين كانت ورقلة تحت إمارة "علاهم"[1]، أما المناطق الجبلية فقد تكوّنت بها إمارات ذات نسب شريف مثل "إمارة كوكو"[2] التي كان على رأسها "أحمد بن القاضي"[3]، و إمارة "بني العباس" التي كان أميرها "عبد العزيز"[4]، أما في الوسط الشرقي فنجد "إمارة بوعكاز" التي كانت بمنطقة الحضنة والزاب الشرقي. إضافة إلى نفوذ بعض القبائل العربية كالثعالبة، والضحاك وعياد، وعطاف، وديالم، وأخرى بربرية مثل قبائل زواوة ومغراوة، وتوجين، وبني مزاب، وفطين وغيرهم[5].

و من خلال ما سبق ذكره، يمكن القول أن المغرب الأوسط كان يمر بفترة تاريخية حرجة، فقد أدى عدم الاستقرار السياسي إلى انعكاسات خطيرة على المنطقة، انعكست على مختلف نواحي الحياة، في حين كانت الضفة الشمالية من المتوسط تعيش نهضة علمية، اقتصادية وسياسية، وهذا ما أدى إلى اختلال في موازين القوى بين الجبهتين الشيء الذي جعل أوربا تتفطن لاستغلال الوضع، سعيا منها لتنفيذ المشروع الاستعماري على دويلات المغرب العربي[6].

ب – جهود الإخوة بربروس :

لمَّا تمَّكن الإسبان من احتلال أجزاء واسعة من السواحل الجزائرية، ومع إزدياد تدهور أوضاع المغرب الأوسط بعد ما تحوّل إلى قاعدة للحكام الضعفاء والمستعينين بالصليبيين، تولد في نفوس الرعية الحقد والكره والضغينة، تجاه حكامهم والإسبان على حد سواء[7].

---

1) المدني، **حرب الثلاثمائة سنة..**، مرجع سابق، ص 83.

2) حيمر، مرجع سابق، ص 46.

3) **أحمد ابن القاضي:** ينحدر من عائلة ابو العباس الغبريني العالم بعلوم الشريعة و الفقه في القرن الثالث عشر الميلادي، كان يعمل قاضيا لدى آخر سلاطين بجاية، ثم تمت ترقيته إلى رتبة خليفة في المنطقة الممتدة من الصحراء إلى جيجل. **أنظر:** شوفالييه، مرجع سابق، ص 25.

4) جوليان، مرجع سابق، ص 322.

5) نفسه، ص 322.

6) عثمان الكعاك، **موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي**، ط1، دار المغرب الإسلامي، لبنان، 2000، ص 306.

7) وليام سبنسر، **الجزائر في عهد رياس البحر**، تر: وتعليق عبد القادر زبادية، ش. و. ن. ت الجزائر، 1980، ص21.

و من خلال هذه الظروف الصعبة التي كانت تمر بها البلاد في البحر المتوسط على عهد الأخوة بربروس [1] الذين دخلوا بادئ أمرهم في خدمة "السلطان قرقود" [2]، الذي جعله والده بايزيد الثاني على رأس إمارة قرمان، وأرسلهم غازين في البحر المتوسط فكان عروج [3] يغنم ما استطاع ثم يأوي إلى ميناء الإسكندرية بعد أن يدفع الخمس من الغنائم لبيت مال المسلمين [4]، ثم تحول بعدها مع إخوته إلى الساحل التونسي بعد اتصاله بالأمير "أبي عبد الله محمد الحفصي" واتفاقه معه على تقاسم الغنائم واعطائه الخمس [5] فاتخذ من ميناء حلق الوادي مخبأ أمينا لهم[6].

---

1) هم أربعة إخوة: عروج (أوروج) و خير الدين و اسحاق و محمد إلياس، لأب من أصل تركي بإقليم الروملي اسمه يعقوب بن يوسف كان يحترف صناعة الفخار، وأصلهم من جزيرة مدلّي(ميتلان) في الأرخبيل اليوناني. **أنظر:** بوعزيز، **الموجز ..**، مرجع سابق، ص 10.

2) **الأمير قرقود:** الإبن الثالث للسلطان بايزيد الثاني، و الأخ الأكبر للسلطان سليم الأول اشتهر بحمايته للبحارين الأتراك ، قتله السلطان سليم الأول بعد جلوسه على عرش السلطنة سنة 1512 . **أنظر:** خير الدين بربروس، **مذكرات**، تر: محمد دراج، ط1، شركة الأصالة للنشر و التوزيع، الجزائر 2010 ، ص 29 .

3) **عروج:** ورد اسمه في جميع المصادر و المراجع التركية بإسم اوروج (أوروتش) ، لكن و منعا للبس و ليس إقرارا بالخطأ الشائع، فقد اتبعنا ما درجت عليه أغلب المصادر و المراجع العربية. **أنظر:** بربرورس، المصدر السابق، ص 20. **أنظر أيضا:** المدني، **حرب الثلاثمائة سنة ..**، مرجع سابق ص ص 145 – 146.

4) المدني، المرجع السابق، ص ص 142–143.

5) محمود السيد الدغيم، **أضواء على تاريخ البحرية الإسلامية حتى نهاية عهد الخليفة العثماني سليم الثاني 1574**، ط 1، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، 1994، ص 393.

6) **حلق الوادي:** لسان بحري يصل تونس بالبحر، و تفصله مرتفعات عن قرطاج عرفت عند الأوربيين (La Goulette)، شهدت قلعته العديد من المعارك الحاسمة منها استيلاء خير الدين على مدينة تونس1534م، و حملة شارلكان على تونس 1535م. **أنظر:** ج. آو. هابنسترايت، **رحلة إلى الجزائر و تونس و طرابلس 1732م**، تر و تع: ناصر الدين سعيدوني، ط 1، دار الغرب الاسلامي تونس، 2008، ص 114.

استطاع الإخوة بربروس أن يقوموا بشن العديد من الغارات على السواحل الإسبانية تمكنوا من خلالها من نقل العديد من مضطهدي الأندلس إلى شمال إفريقيا [1]، وتمكنوا بفضل هذه الأعمال من اكتساب شهرة واسعة بين الشرق والغرب [2].

وما إن وصلت أخبار الإخوة بربروس، هذه القوة المسلمة الجديدة، والقادرة على الصمود في وجه الصليبيين عامة والإسبان خاصة، إلى مسامع سكان بجاية، حتى أرسل إليهم أميرها "أبو بكر الحفصي" بعض الأعيان والعلماء لإنقاذهم من أيدي الصليبيين [3].

استنصر سكان بجاية الإخوة بربروس فنصروهم، وتم الاتفاق بين الطرفين على الالتقاء عند أسوار بجاية [4]، وبالرغم من الفشل الذي مني به عروج في الوصول إليها إلا أنه رأى أن فتح بجاية يحتاج إلى خطة محكمة مع عدة حربية هائلة، فانصرف إلى جيجل وتمكن منها وانتزعها من الجنويين عام 920هـ / 1514 م[5]، فغنم منها الكثير كما أسر حوالي 600 أسير [6].

حاول عروج تحرير بجاية من جديد في سنة 921 / 1515م، بمساعدة القبائل الجبلية، و تمكن من الاستيلاء على احدى القلعتين التي بناهما الاسبان، و حاصر بجاية و القلعة الثانية لكن لم يوفق في تحريرها، لأن تلك القبائل انصرفت بدون استئذانه لزرع الحقول [7].

كما امتنع السلطان محمد بن الحسن عن تزويده بالبارود خوفا من ضياع ملكه فاضطر عروج للانسحاب إلى مدينة جيجل [8].

---

1) جوليان، مرجع سابق، ص 32.

2) أحمد بن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، ط2، ج2، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1977، ص 10.

3) نفسه، ص 10.

4) محمد العربي الزبيري، **مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث**، المؤسسة الجزائرية للطباعة الجزائر، 1975، ص 42.

5) المدني، **محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766 – 1791)**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 23.

6) حليمي، مرجع سابق، ص 53.

7) الوزان، مصدر سابق، ص 38.

8) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ص 11.

بعد وفاة الملك فرديناند في 23 جانفي 1516 م، أراد أهل الجزائر التخلص من قيود الهدنة[1] التي أمضوها معه، فبعثوا إلى مدينة جيجل[2] وفدا يطلب المساعدة و العون من الأخوين بربروسا[3]، قائلين لهم: " سمعنا بكم أناس تحبون الجهاد و أخذتم بجاية و جيجل من أيدي النصارى، و نصرتم الدين، هنيئا لكم ايها المجاهدون، لا بد أن تقدُمُوا إلينا، و تُخلِّصونا من أيدي هؤلاء الملاعين الكفرة، لأننا في مِحنة عظيمة و ذِلَّة شديدة "[4].

لبّى "عروج" النداء و حاول تحرير حصن البنيون لكن فشل بسبب ضعف المدفعية و تمكن من قتل "سالم التومي" [5]، الذي حاول تقليص نفوذه و حاك المؤمرات ضده مستعينا بالأسبان[6].

---

1) عقدت هذه الهدنة بعد تعرض مدينة الجزائر لقذائف المدفعية الاسبانية الموجودة في حصن البنيون (رباط الخيل) بسبب إغارتهم على جزر ميورقة منورقة، و كانت مدة هذه الهدنة عشر سنين مع دفع ضريبة للاسبان. **أنظر:** الوزان، مصدر سابق، ص 38.

2) **جيجل:** مدينة ساحلية تقع في الشرق الجزائري، سميت جيجل بالفينيقية " شاطئ الدوامة "، و هناك من قال أنّها أمازيغية تعني ربوة أي سلاسل جبلية، أسست في القرن 06 قبل الميلاد. **أنظر:** شرفي مرجع سابق، ص 78.

3) Mercier Ernest, **Histoire de L`Afrique Septentrionale - histoire de la Barberie 1515 – 1830**,T3, Ernest Leroux editeur, paris, 1868, p15.

4) محمد بن رقية التلمساني، **الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة** نشر سليم بابا عمر، م. ت. ح. م، ع 3، 1967، ص 4.

5) من المؤرخين من يزعم انه قد نفذ فيه حكم الإعدام بيده، و يشير أحمد توفيق المدني إلى أنه توجد وثيقة مكتوبة باللهجة العامية بين الوثائق المحفوظة في الارشيف الاسباني (سيمانكس) تدين سالم التومي و تثبت أنه قُتِلَ من أجل الاسبان، و هي مرسلة من طرف أحد شيوخ العشائر إلى الكاردينال خيمينيس و مما جاء فيها : ".. فالذي نعرّفكم به هو أن ابن سلطان تنس هو ابنكم و متعلق بكم و كذا ابن التومي صاحبكم في الجزائر انذبح عليكم و على خدمتكم.."، كما اختلف المؤرخون في مكان قتله في الحمام، أو الراجح انه قتله في قصره المسمى الجنينة **أنظر:** المدني، **حرب الثلاثمائة سنة..** مرجع سابق، ص 160. شوفالييه، مرجع سابق، ص 29.

6) عمار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائر من البداية و لغاية 1962**، ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1997، ص 53.

و قد أثار مجئ الإخوة بربروس حفيظة الاسبان، فسيّروا ضد مدينة الجزائر حملة عسكرية بقيادة "دييغو دوفيرا" (Diego de verra) في نفس السنة 1516 م[1]، بعد أن تحالفوا مع أمير "تنس" [2]، و استمالوا إليهم أتباع سالم التومي المغتال و بعض زعماء القبائل المجاورة، لكن بعد يومين من الإنزال استطاع عروج إلحاق الهزيمة بهم[3].

هذا الانتصار على الأسبان دفع سكان المدن المجاورة كالبليدة[4] و المدية و دلس و مليانة و جزء من بلاد القبائل إلى مبايعة عروج أميرا عليهم، و كانت هذه الحملة الناجحة هي التي فتحت أبواب النجاح لعروج و بداية توسع نفوذه في الجزائر، و لما كان موقف أمير تنس متعاونا مع الأسبان قرر عروج الانتقام منه و ذهب على رأس قوة كبيرة و اقتحم المدينة في جوان 1517م، و قتله و أسر أسرته و طرد الأسبان من تنس[5].

و بينما كان عروج في مدينة تنس ينظم شؤونها، قدم إليه وفد من تلمسان يشكوا إليه أوضاعهم المزرية، و تهديد الأسبان لهم، بسبب ضعف أمراء بني زيان نظرا لصراعهم

---

1) غادر الأسطول الاسباني قرطاجنة في 30 سبتمبر 1516 م، و ضم 320 سفينة تحمل على متنها 15 الف مقاتل حسب مخطوط " زهرة النيرات "، في حين تشير الوثائق الاسبانية إلى أن الاسطول كان يتكون من 30 سفينة فقط تحمل على متنها 1000 جندي و 2000 من البحارة. **أنظر:** شوفالييه مرجع سابق، ص 33.

2) هو حميد العبيد من بني مهل، و قد راسل الاسبان يحرضهم على المساعدة في طرد الاتراك خشية زوال ملكه، فكتب يوم 25 اوت 1516 إلى القائد الاسباني " دييقو دوفيرا ": "... و الآن إنني تحت حماية سيدي البرنس دون كارلوس – الوالي الاسباني على مدينة وهران إذ ذاك ــ يفعل بي ما يشاء إنني دائما في خدمته و سيكون أحسن وسيط بيننا، و لا أرجوا من سيادتكم إلا المحافظة على مملكتي". **أنظر:** الجيلالي، مرجع سابق، ص 41.

3) عائشة غطاس و اخريات، **الدولة الجزائرية الحديثة و مؤسساتها**، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر، الجزائر، 2007، ص ص 22 – 23.

4) **البليدة:** مدينة حديثة العهد، لم يشر إليها البكري و لا الادريسي و لا ابن خلدون، و تحدث القدماء عن خزونة و متيجة، التي خر لها بنو غانية سنة 623هـ و قيل أن مؤسسها خير الدين باشا و قيل بل سيدي أحمد الكبير سنة 942هـ/ 1535م، و كانت أيام الترك تابعة لدار السلطان. **أنظر:** مولاي بلحميسي، **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، ط2، ش. و. ن. ت، الجزائر ص 171.

5) بوعزيز، **الموجز...**، مرجع سابق، ص ص13-15.

على السلطة، في هذه الظروف قام "أبو أحمد الثالث" بالاستيلاء على العرش بتلمسان بالقوة و طرد ابن أخيه "أبا زيان الثالث" و وضعه في السجن، و نتيجة هذا الوضع استنجد و طلب التعاون مع الأسبان، فلبّى عروج رغبة الوفد و استخلف أخاه عروج على الجزائر و اتجه إلى تلمسان و في طريقه مر على قلعة بني راشد (قرب معسكر) فوضع بها حامية تركية كبيرة بقيادة أخيه إسحاق من أجل حماية مؤخرة الجيش و واصل زحفه إلى تلمسان و استطاع بسهولة التغلب على أبو أحمد الثالث المتآمر مع الأسبان و دخل عروج تلمسان و أطلق سراح أبا زيان الثالث و أجلسه على عرشه من جديد، لكن هذا السلطان خاف من هيمنة عروج و حاول أن يغتاله، مما أدى بعروج إلى إلقاء القبض عليه و اغتياله[1].

أما أبو أحمد الثالث فقد فر إلى وهران لطلب النجدة من الأسبان، و تعاون الأسبان معه و شنوا حملة كبيرة على قلعة بني راشد و احتلوها و قتلوا صاحبها (إسحاق في جانفي 1518م)، و واصل الأسبان سيرهم نحو تلمسان و فرضوا عليها حصارا كبيرا مما اضطر عروج أن يعتصم بقلعة المشور ثم غادرها ليلا لكن الأسبان تفطنوا لخروجه و تبعوا مسيرته ليلا و اغتالوه في منطقة سهلية بين المالح و زاوية سيدي موسى و أخذوا رأسه إلى إسبانيا (مدريد)، وقد جُنِّدت لهذا الغرض فِرق جابت معظم المدن الاسبانية زاهية برأس عروج كما أرسلوا جلبابه الذي كان يلبسه إلى كنيسة القديس "جيروم"[2].

رغم ذلك كان الإخوة بربروس قد حققوا انتصارات كثيرة، واكتسبوا حب الناس بالرغم من الدسائس والمؤامرات التي واجهتهم، وهذا ما سهل على عروج وضع الأسس الأولى للدولة الجزائرية قبل استشهاده سنة 1518م .

---

1) غطاس، مرجع سابق، ص 23. وولف، مرجع سابق، ص ص 22 – 23.

2) جمال قنان، **معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619 – 1830**م، ط خ، وزارة المجاهدين، الجزائر 2007، ص ص 23 – 24.

ج – ميلاد الدولة الجزائرية الحديثة

تكفل خير الدين بإكمال عمل أخيه عروج المتمثل في اخضاع الزيانيين وبناء الدولة الجزائرية الموحدة، وقد صادفته – من أجل ذلك – بعض العراقيل منها خروج بعض القوى عليه من جديد في محاولة لاستعادة نفوذها[1].

و قد أصبح الأمل كله معقود على خير الدين الذي عزم في البداية على مغادرة البلاد والذهاب إلى اسطنبول، وبعد تَرجِّي وإلحاح من مجلس أعيان مدينة الجزائر، كونهم سيصبحون عرضة لهجمات الاسبان و الأوربيين، أدرك خير الدين نظرة سكان مدينة الجزائر له، فشرح لهم أنه ليس له قوة تعينه على التصدي للتحرشات الأوروبية والإسبانية خاصة، وعرض عليهم فكرة طلبهم المساعدة من الدولة العثمانية لحماية الجزائر مقابل دخولها تحت سلطانها سليم الأول[2].

من أجل ذلك، سافر وفد من أعيان مدينة الجزائر وعلى رأسهم "أحمد بن القاضي" إلى السلطان العثماني في الأستانة، مرفقين برسالة مؤرخة في الأول من ذي القعدة 925 هـ (26 أكتوبر – 03 نوفمبر 1519 م) تطلب انضواء الجزائر تحت الخلافة العثمانية وكانت مرفوقة بهدايا فاخرة[3].

لما اطلع السلطان "سليم الأول" على فحوى الرسالة قَبِل طلب الوفد، ولما حان وقت مغادرته أرسل معه فرمانا إلى خير الدين بربروس، يخبره فيه بقبوله دخول الجزائر ضمن الخلافة العثمانية، وأن أي اعتداء خارجي على أراضيها يعتبر اعتداء على الخلافة العثمانية في حد ذاتها[4].

---

1) بن أشنهو، مرجع سابق، ص 122.

2) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، **موسوعة المغرب العربي**، مج 3، ج 6، ط 1، مكتبة مدبولي، القاهرة 1994، ص 62.

3) حيمر، مرجع سابق، ص 54.

4) جمال قنان، **نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500 – 1830**، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1987، ص ص 42 – 43. **أنظر**: الملاحق " **إنضمام الجزائر للدولة العثمانية**".

وبهذا أصبح المغرب الأوسط تابعا للدولة العثمانية ابتداءً من أواخر سنة 925هـ/ 1519م [1]، ومنح السلطان لخير الدين لقب بايلر باي الجزائر [2]، وإضافة لهذا القرار دعّم السلطان الجزائر بألفي جندي انكشاري من خيرة مقاتلي الجيش العثماني، وأربعة آلاف متطوع، بالإضافة إلى عتاد ضخم من الأسلحة والتجهيزات الحربية، وكان لانضمام الجزائر إلى الخلافة العثمانية صدى واسع وكبير داخل البلاد، حيث ساد الخوف والفزع بين حكام وهران، وتلمسان، وبجاية، الذين خافوا على ضياع سلطانهم [3].

أما أوربا وإسبانيا على الخصوص، فقد حاولت منع قيام دولة جزائرية تتبع مباشرة إلى الباب العالي، ولذا سعت إلى توحيد جهودها الحربية مع الأمراء المتمسّكين بملكهم فكان التحالف الذي جمعها بأمراء تلمسان فيما بعد [4].

د – التنظيم الإداري و السياسي للدولة الحديثة

يرجع الفضل الأكبر في تكوين الدولة الجزائرية الحديثة و انتقالها من العصر الوسيط إلى العصر الحديث لجهود الاخوان عروج و خيرالدين بربروسا، ذلك أن قبول الجزائر بالانضمام تحت لواء الخلافة العثمانية، أنقذها من الخطر الاسباني، و مكّنها من التمتع بمكانة و هيبة دولية مرموقة، و تمكّنت من خلاله من توطيد ركائز الحكم و انتشار الأمن بربوعها، ففي الفترة ما بين (1522 – 1567م) تميّزت الناحية الشرقية خصوصا

---

1) يختلف المؤرخون في تاريخ الانضمام الفعلي للجزائر للخلافة العثمانية، فبعض المصادر العربية كـــ: " الغزوات " و " زهرة النيرات " تحدد تاريخ (926هـــ / 1520 م)، أي بعد الهجوم الاسباني بقيادة هيجو دو مونكاد 1519م، في حين تشير مصادر أخرى إلى دخول المدينة تحت الحماية العثمانية يرجع لسنة 1518م و هو الأرجح. **أنظر:** شوفالييه، مرجع سابق، ص ص 38 – 39.

2) نجيب زبيب، **الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس**، تقديم أحمد بن سودة، ج 1، ط 1، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، 1995، ص ص 157– 158. وهناك من المؤرخين من يرى أن لقب البايلر باي لم يمنح لخير الدين إلا سنة 1534م. ويرجحون هذا التاريخ الذي ذكرته حسبهم الموسوعة التركية وكتب أخرى، على غيره من التواريخ باعتبار أن رتبة البايلرباي رتبة عالية المستوى، ولا يمكن أن تمنح لخير الدين عن طريق فرمان يرسل إليه عن طريق الوسائط، وإنما الأصل – عندهم – أن هذه الرتبة تتطلب قدوم خير الدين شخصيا إلى اسطنبول لتقليده هذه الرتبة، وهو ما كان حسبهم سنة 1534م. **أنظر:** شوفالييه، نفسه، ص ص 38– 39.

3) شوفالييه، المرجع السابق، ص 39.

4) المدني، **حرب الثلاثمائة سنة**، مرجع سابق، ص 189.

ببناء الثكنات العسكرية و بسط سيادة الدولة، كما كان الحكم يتراوح بين منح الاستقلالية الكاملة للأقاليم، و بين المركزية، و كانت سلطة حاكم الجزائر الأعلى تدين بالطاعة للخليفة، و تقتبس من نظم الخلافة العثمانية في تحديد الوظائف بالإضافة إلى الإبقاء على الطابع المحلي للبعض الآخر، كما استندت على مقومات الدين الاسلامي شريعة قانونية كاملة بالإضافة إلى العادات و الأعراف [1].

د – 1) التنظيم الإداري :

تمتعت الجزائر بنظام جمهورية [2]، تربطها بالخلافة علاقات دينية و اتفاقات شكلية و قد اعتبر رؤوساء الدولة الجزائرية أنفسهم حلفاء للباب العالي، كما كانت السلطة المركزية بالجزائر هي التي توجه السياسة العامة للبلاد، حيث كان الديوان هو الذي يتولى الحكم، و يعتبر عصر البيلربايات – أمير الأمراء – و الذي امتدّ إلى غاية سنة 1587م أزهى العصور بتداخله مع عصر الفتح 1512 بقيادة عروج و خير الدين، إذ ازدهرت البلاد في النواحي التعليمية و الاقتصادية و العمرانية، و الذي يقسم بدوره إلى دورين: الدور الأول: و يمتد من 1514 م إلى 1544 م و هو عصر الفتح و التمهيد و دام 30 سنة، و يبدأ بقيام الدولة الجزائرية الأولى إلى غاية انتهاء ولاية حسن آغا، أما الدور الثاني: فيبدأ من سنة 1544 إلى غاية سنة 1587 م، أي من ولاية حسن بن خير الدين الأولى إلى غاية بداية عصر الباشاوات[3].

و قد كان أول تنظيم إداري للجزائر، هو قرار خير الدين بتقسيم الجزائر إلى إقليمين: شرقي و عاصمته كوكو ببلاد القبائل، و نصب عليه ابن القاضي، و غربي بقيادة محمد بن علي، و احتفظ هو لنفسه بالجزائر، و كانت الغاية من هذا التقسيم الاعتماد على العنصر المحلي في الحكم [4]. كما شكَّل مجلسا من الشيوخ و العلماء و رجال الدين و بعد

---

1) ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي البوعبدلي، **الجـزائـر في التاريخ (العهـد العثمـاني)** م. و. ك، الجزائر، ص ص 14 – 15.

2) هناك من يرى أن الجزائر كانت جمهورية عسكرية، و يذكر آخرون أنها كانت مملكة، و الواقع أنها كانت تحكم بنظام خاص لم يعرف في اي بلد آخر، و أهم مميزاته أنه كان يجمع بين الصيغة المدنية و العسكرية. **أنظر:** كليل، مرجع سابق، ص 154.

3) المدني، **محمد عثمان باشا..**، مرجع سابق، ص 34.

4) نفسه، ص 25.

قيام الدولة الجزائرية بصفة رسمية و قصد تحقيق انسجام أكثر في الوظائف، و القيام ببعض الخدمات العامة ذات الطابع الاجتماعي و الاقتصادي قسمت الجزائر إلى أقسام استحدثها لأول مرة حسن بن خير الدين في حكمه للمرة الثالثة [1]، بتنظيمه للإدارة التي كانت تسير من قبل رئيس الدولة يعاونه خمسة أعضاء يكونون مجلسا استشاريا و تمّ تقسيم الجزائر إداريا إلى :

– **بايلك الجزائر:** و يعتبر المقاطعة المركزية لإيالة الجزائر و هو اصغر البايليك و أكثرها تميزا [2]، مركزه مدينة الجزائر(دار السلطان) و نواحيها كانت منطقة حرة و يوجد بها مقر رئيس الدولة [3]، و هو أيضا مركز وجود مختلف السلطات و الحاميات العسكرية، و وجود القناصل الأجانب، و تمتد هذه المقاطعة من مدينة دلس [4] شرقا إلى مدينة شرشال غربا، و يحدها من الجنوب بايلك التيطري.

– **بايلك الشرق:** تأسس سنة 974 هـ / 1567م، مقره قسنطينة، و يعتبر من أهم و أكبر المقاطعات في الجزائر، حيث له حدود جغرافية واسعة حتى حدود تونس شرقا و بلاد القبائل غربا، و يحده البحر المتوسط شمالا و الصحراء جنوبا، و يحكم البايلك باي يُعيّن من دار السلطان [5].

---

1) بن شغيب، مرجع سابق، ص 72.

2) حمدان بن عثمان خوجة، **المرآة**، تق و تع: محمد العربي الزبيري، ش. و. ن. ت، الجزائر 1975، ص 118. غطاس، مرجع سابق، ص 15.

3) مقر رئيس الدولة هو قصر الجنينة الذي كان في الواجهة المقابلة لمدخل المدينة الرئيسي، و هو عبارة عن قصر واسع محيطه حوالي 200 قدم طولا و 40 قدما عرضا، و مدخل القصر يتخلله رواقان بالأقواس تدعمها الأعمدة الرخامية التي تمتد على طول عرض البناية بكاملها و في الخلفية قاعتان واسعتان حيث يجتمع الديوان لتناول قضايا الدولة. **أنظر:**الجيلالي، مرجع سابق، ص 90.

4) **دلس:** مدينة عتيقة بين الجزائر و بجاية، كانت في القرن 16م يحيط بها سور متين. **أنظر:** بلحميسي، مرجع سابق، ص 48.

5) صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي 1514 – 1830**، ط2، دار هومة، الجزائر، 2007 ص 292.

– **بايلك التيطري:** من أوسع البايلك مساحة، عاصمته المدية[1]، و تصل حدوده أحيانا إلى الصحراء، و يعتبر أصغر مقاطعات القطر من حيث المساحة و الامتداد.

– **بايلك الغرب:** تأسس سنة 970هـ / 1563م[2]، مركزه مازونة[3]، و هو مهم نظرا لموقعه و حدوده المفتوحة مع دويلات المغرب الأقصى، حيث يمتد من الحدود المغربية غربا إلى ولاية التيطري شرقا، و يأتي بعد بايلك الشرق من حيث المساحة[4].

أما النظام الإداري[5] في العهد العثماني فقد عرف عدة تنظيمات، و من بين الأجهزة التي ظهرت مع هذا النظام :

- **الديوان:** و لا يعرف بالتحديد تاريخ تأسيسه، لكن يرجح أنه قد اسسس في عهد خير الدين بارباروس، و يمكن تمييز ديوانين: الديوان الصغير(الخاص) و يضم كبار ضباط الانكشارية، و عددا من الموظفين الكبار[6]، و الديوان الكبير (العام) و هو مجلس واسع يضم حوالي سبعمائة شخص، أغلبهم من الجيش و البقية أعضاء الحكومة، و ضباط البحرية و العلماء، و نقيب الأشراف[7].
- **الخزناجي:** و هو المتصرف في خزينة الدولة– وزير المالية – و المشرف على الإنفاق، و مراقبة السكة[8].

---

1) **المدية:** قيل هي (Lambdia) القرية الرومانية، التي سبقت المدينة الاسلامية، و قيل معناها العلو و الارتفاع، و قال ابن خلدون " نهض عثمان بن يغمراسن الى المدية و بها أولاد عزيز من توجين فنازلها، فيها قبائل تعرف بالمدية و إليهم تنسب ". **أنظر:** بلحميسي، مرجع سابق، ص 171.

2) غطاس، مرجع سابق، ص 233.

3) **مازونة:** عاصمة منطقة الظهرة، مدينة قديمة سبقت الاحتلال الروماني غير أن البكري لم يذكرها احتفظت بمركز بايلك الشرق أثناء فترة الاحتلال الاسباني لوهران، لكن انتقلت عاصمة بايلك الغرب بعدها إلى معسكر ثم وهران(فيفري 1792م) من طرف محمد باي. **أنظر:** بلحميسي، المرجع السابق، ص 151، 170.

4) كليل، مرجع سابق، ص ص 155–156.

5) تميّز هذا النظام الإداري بالتطور التدريجي، إذ لم يستكمل تنظيماته، و تستقر أجهزته إلا مع نهاية القرن الثامن عشر الميلادي. **أنظر:** سعيدوني، مرجع سابق، ص16.

6) غطاس، المرجع السابق، ص 112.

7) عبّاد، مرجع سابق، ص 281.

8) سعيدوني، مرجع سابق، ص 17.

- **وكيل الخرج:** مكلف بمراقبة النشاط البحري – وزير حربية – و يشرف على أعمال الترسانة البحرية، و ينظر في توزيع الغنائم، و يتصل في بعض الأحيان بقناصل و مبعوثي الدول الأوربية[1].
- **خوجة الخيل:** و هو المكلف بمداخيل الأراضي التابعة للسلطان أو البياليك، و يرعى مواشي الدولة من خيول و بغال و جمال و أغنام و ابقار، و يتصل بفرسان المخزن و بالقبائل الحليفة، أو المقيمة في أراضي دار السلطان و التيطري للحصول على المواد الغذائية لتموين الموظفين و الفرق العسكرية المتواجدة في مدينة الجزائر[2].
- **بيت المالجي:** مراقب الأملاك و الثروات التي تعود للدولة نتيجة المصادرة أو انعدام الوراثة، كما لايقوم بحفظ الودائع و تسيير أملاك الغائبين و التصرف فيها في حال شغورها ببيعها أو تسليمها لمستحقيها[3].

تركّز هذا النظام الإداري في مدينة الجزائر و إقليم دار السلطان، و نفس الشيء تقريبا في باقي المقاطعات الأخرى، حيث كان على كل بايلك باي مطلق الصلاحية و على كل فإن التنظيم الإداري للإيالة الجزائرية كان يحمل في طياته تكوين دولة وطنية رغم ما كان يتصف به من مظاهر خاصة و جوانب سلبية و إيجابية[4].

د – 2) التنظيم السياسي :

تميّز النظام السياسي في الجزائر في هذه الفترة المدروسة –القرن السادس عشر الميلادي– بنوعين من نظام الحكم، فترة البيلربايات (1519 – 1587م) و هي الفترة التي تبدأ بحكم خير الدين بربروس كأول بيلرباي للجزائر سنة 1519م، و تنتهي بحكم علج علي سنة 1587م، تلتها فترة الباشاوات[5] (1587 – 1659م) و تبدأ بوفاة علج علي

---

1) سعيدوني، مرجع سابق، ص 17.

2) عباد، مرجع سابق، ص 279.

3) سعيدوني، المرجع السابق، ص 17. خوجة، مصدر سابق، ص 134، 135. غطاس، مرجع سابق، ص 118.

4) سعيدوني، المرجع السابق، ص ص 20 – 21.

5) كان الباشاوات يعينون من طرف السلطان العثماني لمدة ثلاث سنوات مع إمكانية التجديد، و تمّ تقليص الامتيازات التي كانت في السابق للبيلربايات، حيث أصبح دور الباشا مقتصرا على المراسيم و توقيع الاتفاقيات، و تعيين القواد و تنفيذ أوامر السلطان، و جمع الضرائب و المحافظة على الأمن=

في شهر جوان 1857م، حيث قرر السلطان مراد الثالث إلغاء نظام البيلربايات و استبداله بنظام الباشاوات[1].

وقد تميزت الفترة الأولى بارتباط الجزائر الوثيق بالدولة العثمانية حيث كان السلطان العثماني هو الذي يعين الحكام و يعزلهم و كانوا يعينون لمدة غير محددة[2]، كما عرفت الجزائر في هذه الفترة مرحلة تنظيم داخلي و نشأة كيان سياسي بحدوده و عاصمته و أقاليمه، و برزت كقوة في البحر المتوسط[3].

و عموما فإن عهد البيلربايات و فترة حكمهم اتسم بخصائص عديدة يتمثل أهمها في:

معظم الحكام الأوائل (البيلربايات) من طائفة رياس البحر، حيث كان أغلبهم من رفاق خير الدين، و امتهن معظمهم أعمال البحر، كما أن السلطان العثماني هو الذي يعين أو يوافق على البيلرباي، أو بالأحرى يقبل اقتراح الرياس، بحكم أن الجزائر إيالة تابعة للدولة العثمانية، وكانت روابط رياس البحر بالسلطان العثماني روابط قوية، يتولون تنفيذ أوامره و تعليماته، و حكم بعضهم لفترات طويلة[4].

أيضا ركّز معظمهم في أعمالهم على مواجهة المسيحيين خاصة الاسبان في البحر المتوسط و تصفية جيوبهم في بعض المناطق الداخلية و الموانئ، و قدموا يد المساعدة لمسلمي الأندلس الفارين من بطش المسيحيين، كما امتازمعظمهم بالشخصية و السلطة و النفوذ، ما سيتيح لهم فرصة السيطرة على مناطق خارج الجزائر مثل تونس و طرابلس الغرب (ليبيا)، فبحكم تعيينهم بفرمان (مرسوم) من طرف السلطان تولوا تعيين باشاوات في تونس و طرابلس الغرب، كما نجح معظمهم في إدارة مختلف جبهات

و تجنيد الجيش، و قد ساد في هذا العهد فوضى كبيرة، حيث كثر الظلم و الإرهاب و أهملت البلاد بسبب اهتمام الباشا بجمع الأموال و الثروة، و أصبح غير قادر على الوقوف في وجه الانكشاريين. **أنظر:** عزيز سامح التر، **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**، تر: محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، ص 277.

1) غطاس، مرجع سابق، ص 46.

2) ابراهيم سعيود، **علاقات الجزائر بالدويلات الايطالية خلال القرنين السابع عشر و الثامن عشر** مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، الجزائر، 1999 – 2000، ص 4.

3) غطّاس، مرجع سابق، ص 48.

4) بوعزيز، مرجع سابق، ص 21.

الصراع الخارجية ضد إسبانيا خاصة، و الداخلية كمعارضة ابن القاضي و بعض أعيان الجزائر لسلطتهم، كما أصبح للجزائر في هذه الفترة أسطولا بحريا كبيرا ساهم في إنشاء مقاومة ضد القراصنة الأوربيين[1].

1) بوعزيز، مرجع سابق، ص ص 22-24.